روايات عبير

جروح بلا دواء

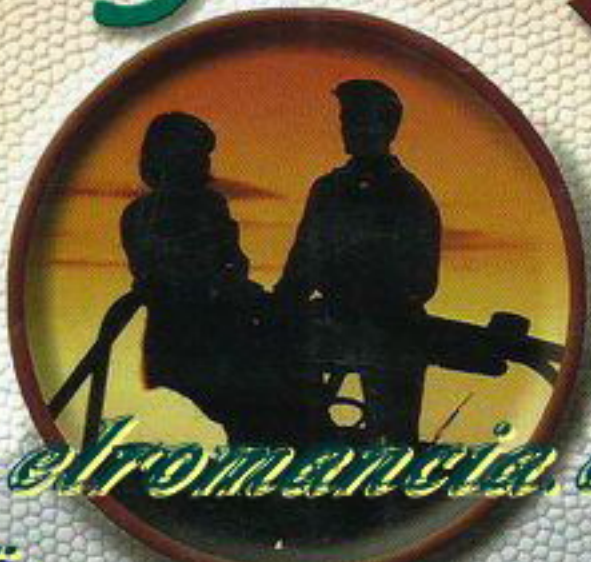

www.elromancia.com

مصرية

No. 014

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

روايات عبير

جروح بلا دواء

◆ عندما يقع المرؤ فى الحب لا يفكر سوى فى الارتباط بمحبوبه بالزواج، دون النظر إلى ما إذا كان هذا المحبوب يبادلة حباً صادقاً أم أنه تظاهر بذلك بهدف تحقيق بعض المكاسب المادية ... هذا ما حدث لايلاين حينما شككت فى حب بيار زوجها، وآثرت الهروب على مواجهته سمعت من أمر خيانته ... و خلال تسعة أشهر من الفراق اعتقدت ايلاين أنها نجحت فى نسيانه إلا أنها أدركت بعد ذلك أن مشاعرها تجاهه لم تتغير... لقد عادت إليه قبل يوم واحد فقط وهاهى الأن تشعر بأنها مازالت تحبه... لقد قبلت إيلاين أن تكون علاقتها مع بيار صورية ولكنها فى ذات الوقت ترفض الطلاق...

I.S.B.N. 977-5346-73-5
9 789775 346735
W.Salama 0101517873

سوريا	٧٥ ل س	البحرين	٧٥٠ فلس
مصر	٥ جنيه	قطر	٨ ريال
لبنان	٢٥٠٠ ل.ل	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	المغرب	١٥ درهم
السعودية	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار
الكويت	٧٥٠ فلس	تونس	١,٥ دينار
الإمارات	١٠ درهم	اليمن	٢٠٠ ريال

روايات عبير 014

جروح

بلا دواء

اسم السلسلة: روايات عبير
اسم الكتاب: جروح بلا دواء
اسم المؤلف: أحمد عبد الله
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: ١٤٠٧١/ ٢٠٠٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-5346-73- 8
تصميم وإخراج الغلاف: وائل سلامة
جمع اليكتروني: فور إتش ٠١٠/٦٦٧٤٢٢٥

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
٢٠٠٦

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ١٣٣٤٤ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
Email:darkitab2003@yahoo.com

www.elromancia.com

١ ـ مطاردة

عندما علمت ايلاين كوبر أن شقيق جدتها لأبيها ارمون سان فيران مريض جدا ويريد حضورها على الفور الى منزله الريفى فى شامبورتن اون دوفاى بفرنسا، اتصلت بادارة شركة الاستيراد اللندنية المعروفة التى تعمل فيها واستطاعت الحصول على اجازة لمدة يوم واحد.

ثم أجرت مكالمة اخرى، حجزت خلالها مقعدا لها على إحدى الطائرات المتجهة الى باريس... وبعثت ببرقية الى مارجريت زوجة ارمون، تبلغها فيها عن موعد وصولها الى مطار شارل ديغول فى العاشرة من صباح يوم الجمعة المقبل. اختارت ايلاين هذا اليوم بالذات لأنه يمنحها، بالاضافة الى الاجازة الاسبوعية المعتادة، ثلاثة ايام كاملة.

حملت الطائرة فى الموعد المقرر لها، فأخذت حقيبتها وأجرت معاملاتها الضرورية فى دائرة الجوازات ثم توجهت الى قاعة الخروج.

لم تجد أى أحد بانتظارها، فجلست حوالى ربع ساعة... لعل الشخص الذى يفترض به استقبالها قد تأخر بسبب الازدحام الخانق فى حركة السير. وعندما تأكدت ان أحدا لن يأتى لملاقاتها قررت استئجار سيارة وقيادتها بنفسها الى شامبورتن. وما هى الا عدة دقائق، حتى كانت ايلاين تنطلق من المطار بسيارة رينو صغيرة حمراء... متجهة الى بعض احياء باريس ومنها الى

الطريق الرئيسية التى تمر عبر الريف الفرنسى الى مدن شارتر وتور وبواتيه وبعدها الى سهول اكويتان.

ولأنها تحب قيادة السيارات كثيرا وتعرف طريقها جيدا، فقد وصلت الى المدينة الأولى شارتر فى وقت مبكر سمح لها بالتوقف بعض الوقت لشرب فنجان من القهوة. أغرتها نفسها بزيارة القلعة التاريخية القريبة، ولكنها قررت متابعة سيرها كى تصل الى شامبورتن قبل الساعة الرابعة على أقل تقدير.

تجاوزت مدينة تور، فتوقفت لبضع دقائق أكلت خلالها قطعة من الحلوى وشربت كوبا من العصير البارد. وما أن اقتربت من بواتيه، حتى بدأت الطريق تعج بسيارات النقل الصغيرة والشاحنات الكبيرة . دخلت تلك المدينة المبنية على تلة صخرية مرتفعة، والتى تشرف على نهرين صغيرين يرويان حقول المنطقة المجاورة وبساتينها. قطعت الجسر الثانى، فأصبحت خارج ذلك الحصن الطبيعى المنيع وامتدت امام عينيها السهول الخضراء الفسيحة.

تحولت ايلاين فى منتصف المسافة بين بواتيه وانجولام الى طرقات ريفية ضيقة، تمر عبر قرى جميلة رائعة يزيد عمرها على مئات السنين. شاهدت قطعان الغنم والماعز ومعدات زراعية، وأبناء الريف الأقوياء يعملون بجد ونشاط وحيوية وعندما بدأت الطريق بالانحدار تدريجيا لتصبح بعد قليل على مستوى واحد مع نهر دوفاى، شعرت ايلاين بتلك السعادة التى تغمر الانسان عادة عندما يرى أشياء مألوفة ومحببة لديه. ذكرتها الأشجار المنتصبة بين حافة الطريق وضفة النهر بأيام طفولتها المفعمة بالسرور، وبالمرات العديدة التى كانت تمر فيها من هنا بالذات مع جدتها آلانور سان

فيران كوبر تلك السيدة الفرنسية الرائعة التى اهتمت بها كثيرا بعد وفاة والديها بحادث سيارة مفجع. دمعت عيناها فرحا وتأثرا، وهى تستعيد كلمح البصر ذكريات فصول الصيف الثمانية التى امضتها مع جدتها الطيبة فى ذلك القصر القديم وأحضان تلك الطبيعة الرائعة.

لم تعد تبعد عن شامبورتن سوى كيلومترات قليلة. وصلت الآن الى عمق الريف الفرنسى الساحر، حيث الهدوء والسكينة... والشلل التام فى حركة السيارات. عاد العمال من مصانعهم، والمزارعون من حقولهم، والموظفون من مؤسساتهم، وبدت الطريق مقفرة ومهجورة تماما... باستثناء سيارتها الحمراء الصغيرة و...

لاحظت للمرة الثامنة تقريبا، ان ثمة سيارة سيتروين رمادية اللون تلحق بها. لم تتضايق من وجود هذه السيارة وراءها قبل ذلك، وهى تخرج من منطقة باريس الى الطريق الرئيسية التى تربط العاصمة بالمدن الريفية. ففى فرنسا بضعة آلاف من سيارات السيتروين التى تحمل هذا اللون، وقد لا تكون السيارة المنطلقة وراءها ذاتها التى تتعقبها منذ بعض الوقت. ولكن الشكوك بدأت تراودها عندما وصلت الى بواتيه، لأن تلك السيارة لا تزال وراءها تلاحقها كظلها . كانت المسافة الفاصلة بينهما مدروسة بدقة على ما يبدو، لأن ايلاين لم تكن قادرة على قراءة رقم السيارة أو معرفة ما اذا كان سائقها رجلا ام امرأة.

نظرت الى مرآة سيارتها من جديد، فازداد توتر اعصابها وتسارعت ضربات قلبها. تأكد لها عندئذ، وبعدما افسحت المجال مرات عديدة دون جدوى لتلك السيارة الكبيرة القوية كى تتجاوزها، بأن السائق يعرفها... ويجد

لذة فائقة فى اثارة اعصابها وتعذيبها بملاحقتها على هذا الشكل الرهيب.

قطبت حاجبيها بعصبية بالغة وتمتمت بكلمات قاسية، عندما ذكرتها تصرفات سائق سيارة السيتروين بشخص ما لم تتوقع مشاهدته قبل وصولها الى القصر... شخص تمكنت من تجنب مقابلته أو رؤيته منذ حوالى تسعة اشهر. انه زوجها بيار دوروشيه، الذى تركته بعد أربعة اشهر فقط من زواجهما... عندما علمت بخيانته لها.

احمر وجهها على الفور غضبا وانفعالا، فمجرد التفكير بما حدث فى العام الفائت لا يزال يؤلمها ويعذبها. كم كانت غبية بشكل كبير فى حبها له، وسخيفة حتى التفاهة، عندما قبلت دون تردد الارتباط بذلك المغامر المتحجر القلب الذى لا يعتبر الزواج سوى وسيلة ملائمة لتحقيق أغراض معينة!

تفجر الحقد فى داخلها، وهى تتذكر بيار وكيفية اذلاله لها، وانحصر تفكيرها فى الهرب من تلك السيارة الرمادية التى تلاحقها بصورة مستمرة، ضغطت على دواسة السرعة وأطلقت العنان لسيارتها الصغيرة، فشعرت بتجاوب فورى من الرينو الجديدة التى بدت كغزال يفر من وجه أسد جائع.

ركزت ايلاين اهتمامها كله على الطريق الممتد امامها ، مكتفية بإلقاء نظرة سريعة بين الحين والآخر على المرآة المثبتة على بابها للتأكد من أن المسافة الفاصلة بين السيارتين آخذة فى الازدياد. برز امامها فجأة منعطف نحو اليسار، فحاولت استخدام المكبح للحد من السرعة الجنونية لسيارتها الصغيرة... ولكنها لم تفلح. شردت الرينو الحمراء عن الطريق ، وانزلقت على العشب الجاف بضعة امتار قبل أن ترتطم مقدمتها بحافة إحدى القنوات المخصصة لرى الحقول المجاورة.

لم يلحق بها أى اذى، و لكن الصدمة النفسية والمعنوية ارهقتها ووترت اعصابها. اطفأت محرك السيارة وأسندت رأسها الى المقود فى محاولة منها للحد من هذا التوتر الشديد والسيطرة عليه. أوقف الرجل سيارته الى جانب الطريق، وهرع نحو السيارة الأخرى التى كان يلاحقها دون كلل منذ فترة طويلة. فتح باب الرينو ولكنه لم يتبين وجه سائقتها تماما،لأن الشعر الذهبى كان يغطى وجهها بالكامل. سألها بلهفة، وباللغتين اللتين يتقنهما جيدا:

- ماذا حدث لك، يا سيدتى؟ هل انت بخير؟

هذا هو صوته القوى الرنان... صوت بيار دوروشيه، الذى حاولت عبثا نسيانه أو حتى طرد صداه من عقلها وقلبها . لم تحرك رأسها أو تزعج نفسها بالرد عليه، فكرر الشق الثانى من سؤاله بلهجة تنم عن القلق والانفعال. أحست برغبة قوية فى تعذيبه والانتقام منه، ولو لجزء يسير مما اصابها بسببه وعلى يده. ليظن انها فقدت وعيها أو ربما ماتت، فقد يشعر بوخز الضمير... هذا اذا كانت لا تزال لديه بقية منه!

سمعته يشتم بالفرنسية ثم أحست بيديه القويتين تمسكان بكتفيها، فشعرت بالخوف... والبهجة فى ذات الوقت. لم تكن لتتصور ان لمسته لها لا تزال ذات تأثير مدمر كهذا ، بعد أشهر عديدة من البعد والفراق... وبعد الجهود المكثفة التى بذلتها لطرده من تفكيرها و... قلبها! هل تحاول التخلص منه أو المضى فى تعذيبه؟

تغلب حب الانتقام المؤقت . فقررت كبح جماح عواطفها وأحاسيسها ومواصلة التظاهر بالاغماء. أبعد رأسها ببطء عن مقود السيارة وأسنده الى المقعد. كيف سيكون رد فعله الآن، بعد مشاهدة وجهها؟ انتظرت بضع ثوان،

فلم يحدث أى شىء على الاطلاق. ظل صامتا و دون حراك، وكأنما الأرض انشقت وابتلعته أو كأنه تبخر فى الهواء . ألا يتنفس؟ ألا يشعر بالذنب لتسببه فى هذا الحادث الذى كاد يودى بحياتها؟ لماذا لا تسمع سوى زقزقة العصافير وحفيف اوراق الشجر؟ قررت فتح عينيها قليلا والأنين بصوت خافت، ليعرف انها حية وبدأت تستعيد وعيها.

- تبدين جميلة جدا ، يا امرأتى الحبيبة، ولكنك غير قادرة على خداعى. فاحمرار وجنتيك الى هذه الدرجة يثبت، بشكل قاطع، انك لم تفقدى وعيك أو تتعرضى لأى اذى.

اختفت نبرة القلق من صوته العميق، وحلت محلها تلك السخرية الحادة... وبخاصة عند اشارته الى العلاقة التى تربط بينهما. فتحت عينيها البنيتين واستوت فى جلستها، ثم حدقت به وبعينيه الزرقاوين الهازئتين. لم يتغير فيه شىء على الإطلاق... شعره الأسود الكثيف الذى خطه الشيب المبكر هنا وهناك، سمرة وجهه الناشئة عن كثرة التعرض للشمس، وفمه الجذاب الذى كان دائما يلهب عواطفها ومشاعرها. يا لهذا الإغراء الفتاك الذى لم يخفف البعد والاشمئزاز من قوته وهيمنته! سألته بتحد ظاهر:

- لماذا تتبعنى؟

رد عليها ببرودة اربكتها وأزعجتها:

- هل كنت أتبعك؟

أليس محتملا أن يكون وجوده وراءها لا يخرج عن كونه مجرد مصادفة؟ وربما كان عائدا من بواتيه! لمعت عيناه مجددا بذلك البريق الساخر وافتر ثغره ثانية عن تلك الابتسامة الخفيفة الهازئة، فتأكد لها أنها على حق... وانه

كان يتبعها طوال الوقت. قالت له بحدة:

- طبعا كنت تفعل ذلك. تعمدت ملاحقتى على هذا النحو المزعج لكى... لكى تعذبنى وتثير اعصابى أليس كذلك؟

اتسعت ابتسامته واتسمت فجأة بالرقة والنعومة، بحيث بدت كأنها واحة أمينة فى صحراء وجهه القاسى المخيف. وضع يده برفق على خدها، وقال بصوت هادىء:

- اوه! إنك تعرفين طباعى جيدا، أيتها العزيزة. ألا يقال إن الشرير الذى تعرفه أفضل من الذى لا تعرفه! فكرى بهذا المثل مليا خلال الأيام القليلة المقبلة التى ستمضينها فى القصر.

احست بشىء من الخوف، لأنه اكتشف على ما يبدو السبب الحقيقى لمجيئها. أبعدت رأسها عنه بعصبية ظاهرة، وقالت بلهجة صارمة:

- لن اطيل عليك البقاء هنا، فأنا مضطرة للعودة الى عملى قبل صباح الاثنين.

ابتسم باستخفاف وتمتم قائلا:

- سنرى، يا عزيزتى، سنرى.

أزعجها هذا الجواب الهادىء، فقررت على الفور اتخاذ جانب الحيطة والحذر... والتصدى له بكامل قوتها. لن يكون سلسا أو مرنا ابدا، عندما يصمم على تنفيذ خطة معينة. قالت بقوة:

- لن أبقى هنا اكثر من ذلك، يا بيار. لن تستطيع ارغامى.

هز كتفيه فشعرت ايلاين انه لن يجادلها وتهيأت لتعليقه الجديد.

قال لها بصوت ناعم رقيق:

- بما انك لم تتعرضى لأى اذى، فهل تقبلين اقتراحى بمتابعة الرحلة معى؟ لا أعتقد أنه بالإمكان إخراج سيارتك من هذه الحفره، دون الاستعانة بمعدات مناسبة.

كلماته تلك عن المعدات الضرورية أفزعتها، فخرجت بسرعة لتفقد السيارة الصغيرة ومعرفة مدى الاضرار التى لحقت بها. بدت الرينو الحمراء سليمة تماما، ولكن حافة القناه مرتفعة بشكل يحول دون اخراج السيارة بالوسائل العادية انه على حق تماما، فلابد من الاستعانة برافعة! سمعته يقفل باب السيارة ويتوجه نحو صندوقها، فأحست باستياء بالغ وسألته بانفعال شديد:

- بحق السماء ماذا تفعل؟

اجابها بهدوء مثير للأعصاب، وهو ينفذ ما يقول:

- اخرج حقيبتك العزيزة من الصندوق، لأنك لست قادرة على الاستغناء عنها.

- اتركها فى مكانها! لا يحق لك ابدا التصرف معى على هذا النحو، أو التحدث الى بهذا الشكل الآمر.

وضع الحقيبة على الأرض ثم اقفل صندوق السيارة الصغيرة بعصبية، قبل أن يوجه اليها نظرة ساخرة ويقول لها ببرودة مزعجة:

- العكس هو الصحيح، يا عزيزتى. فلى كل الحق فى الاعتناء بك وبأمتعتك متى أشاء، وفى اصدار أى تعليمات اعتبرها هامة وضرورية. انت ... زوجتى، ايتها الحبيبة.

قفز فوق قناة الرى الجافة بخفة ونشاط، على الرغم من وجود حقيبتها

فى يده. لحقت به ايلاين بصعوبة كبيرة، وهى تنزلق حينا وتكاد تهوى حينا آخر. وعندما وصلت الى المكان الذى أوقف فيه سيارته، لاحظت ان حقيبتها اصبحت داخل الصندوق المغلق. قال لها بلهجة حازمة، وهو يتوجه لفتح بابه:

- هيا بنا !

- انتظر... فحقيبة يدى لا تزال فى الرينو.

ركضت بسرعة باتجاه السيارة الصغيرة ثانية، فتزحلقت على العشب الجاف ولم تتوقف الا عندما ارتطمت رجلها باحدى العجلتين الخلفيتين. قامت لتفتح الباب فكادت تدوس على المفاتيح التى رماها بيار فى تلك اللحظة بالذات. أخذت حقيبتها الصغيرة وأقفلت باب السيارة مجددا، ثم بدأت الصعود ثانية وهى تتمنى لو انها كانت مرتدية ثيابا اخرى تناسب هذه المناطق الريفية... عوضا عن الفستان الحريرى الأخضر الذى يليق بعاصمة الأزياء باريس.

كان بيار جالسا وراء مقود السيارة، وقد أدار محركها استعدادا للانطلاق. فتحت الباب ودخلت بهدوء لتجلس قربه. ولم تكد تغلق الباب وراءها، حتى انطلقت السيتروين بسرعة جنونية، وكأنما صاحبها يريد الوصول الى وجهته فى أقل وقت ممكن. قال لها بعد لحظات:

- سنتوقف فى محطة الوقود الموجودة على هذا الجانب من القرية لابلاغ مارسيل عما حدث. لديه شاحنة مزودة برافعة، وأنا متأكد من انه سيهب للمساعدة... اكراما لعينيك. انه يسألنى بصفة دائمة عنك، وعن موعد عودتك الى شامبورتن.

ادارت وجهها عنه بسرعة، وركزت نظرها على تلك القرية الجميلة التى

بدأت تلوح كالسراب وسط السهول الخضراء المحيطة بها من كل جانب. ها هى القرية التى تزوجت فيها، وها هو واحد على الأقل من أبنائها الطيبين يسأل عنها! شعرت بتأثر شديد لم تكن تتوقعه، احست بأن شامبورتن بدأت تمارس ضغوطا نفسية عليها...لاقناعها بانها جزء من هذه القرية الساحرة، وبأنها ارتكبت خطأ فادحا لا يغتفر عندما غادرتها.

لا، يجب ألا يحدث ذلك ابدا! ستقاوم كافة محاولات الاقناع والاغراء، الهادفة الى ايقاعها فى الشرك. وأهم من ذلك كله انها، ستكافح بقوة أى محاولة قد يقوم بها الرجل الجالس قربها لاعادة تلك العلاقة التى صارت خلال فترة وجيزة الى ألم ومرارة وعذاب. ولذا، فانها لم تحاول النزول من السيارة عندما اوقفها بيار امام المرآب الذى يعمل فيه مارسيل دوديه وابنه كلود. فضلت البقاء فى السيارة على الرغم من حرارة الشمس القوية والجو الخانق كى لا تضطر لمواجهة هذين الشخصين اللذين سيفتحان بالتأكيد جراحا تكاد تنجح فى تضميدها.

استفاقت فجأة من احلام اليقظة التى غمرتها ... واستعادت بعض الذكريات، عندما سمعت قهقهات بيار ومارسيل وهما يتطلعان نحوها. لاشك انهما يضحكان عليها، بعدما أخبر بيار جاره، وبشىء من المبالغة، تفاصيل الحادث الذى تعرضت له. أبعدت وجهها عنهم دامعة العينين ومتوترة الأعصاب، لأن بيار لا يهتم بها اطلاقا ... بحيث انه لا يتوانى عن التندر بمشكلاتها أمام أى كان. رفعت رأسها قليلا فشاهدت مارسيل قرب بابها، يبتسم لها ويحييها بطريقته المحببة المعتادة. لم يعد بامكانها أن تتجنبه. .. ولم يعد من اللائق تجاهله. انزلت زجاج النافذة للتحدث معه، فبادر الى

القول مرحبا:

- طاب نهارك، يا آنستى...اوه، عفوا، يا سيدتى. انا سعيد برؤيتك ثانية.

رفعت لهجته الودودة الصادقة معنوياتها بعض الشىء فابتسمت له وقالت بعفوية فوجئت بها:

- أسعد الله يومك ياسيد دوديه. انا مسرورة جدا بوجودى هنا، وبمقابلة الناس الطيبين امثالك ارجو أن تعتنى جيدا بالسيارة المستأجرة، وتحضرها الى القصر فى أسرع وقت ممكن.

- سيكون ذلك من دواعى فرحى البالغ يا سيدتى... تماما كما كنت اشعر عند اصلاح دراجتك الهوائية. هل تذكرين تلك الأيام، عندما كنت تركبين الدراجة وتأتين الى القرية لشراء الحلوى من السيدة سوريل؟

- طبعا، اذكر ذلك . كيف حال السيدة سوريل هذه الأيام؟

- ليست جيدة على الاطلاق انها الآن فى المستشفى الرئيسى للمقاطعة.

- اوه، انا آسفة جدا لسماع ذلك.

- سأذهب وزوجتى غدا باذن الله لزيارتها ستسر كثيرا عندما أخبرها بمجيئك. الى اللقاء، يا سيدتى.

انطلقت السيارة الكبيرة مجددا ولكن بسرعة عادية جدا سمحت لايلاين بالتمتع مرة ثانية بالمناظر الطبيعية الخلابة وقبل وصولها الى بداية القرية، تنهدت وسألت بيار بتردد:

- كيف حال الخال ارمون؟

- انه يموت!

اخترق جوابه قلبها كخنجر حاد فأحست بالدموع الحاره تحرق عينيها. تمالكت نفسها وسألته مجددا:

- ووالدتك؟

- تمضى طوال الوقت الى جانبه وتسهر على راحته، كما يجب على كل امرأة أن تفعل عندما يكون زوجها مريضا هكذا قالت لى عندما نصحتها مرة بأخذ قسط من الراحة.

أحست بوخز انتقاده اللاذع للكيفية التى تركته بها فى العام السابق، وشعرت بشىء من الندم لأن تصرفها هذا هو ما دعاه لهذه السخرية الحاقدة. وضعت مرفقها على حافة النافذة وأسندت رأسها على راحة يدها، وأخذت تفكر بما رجريت... والدة بيار وزوجة ارمون. تذكرت فورا استياء جدتها آلانور، عندما علمت بزواج شقيقها ارمون البالغ من العمر آنذاك خمسة وستين عاما من مارجريت دوروشيه... مدبرة منزله وارملة جون دوروشيه، الذى تولى لسنوات ادارة كروم العنب الخاصة بعائلة سان فيران. ذهلت جدتها عند سماعها النبأ وصرخت قائلة:

- رباه، هذا مستحيل...لابد انه جن! امضى طوال حياته عازبا، ليتزوج مارجريت؟ ثمة عزاء واحد فقط، وهو انها تخطت سن الانجاب.

لم يعن هذا الأمر شيئا لايلاين، لأنها كانت فى الثانية عشرة من عمرها وغير عابئة اطلاقا بالأمور الحياتية المعقدة للراشدين ولكنها لم تتمكن من قضاء ذلك الصيف كعادتها فى شامبورتن، لأن جدتها أصيبت بجلطة دماغية حادة أدت الى وفاتها فى المستشفى خلال أسابيع قليلة.

فجأة وجدت ايلان الصغيرة نفسها وحيدة يائسة، لأن آلانور سان فيران كوبر

لم تكن جدتها فحسب... بل أهلها وعائلتها جميعا. فهى تحضنها بمحبة وحنان مذهلين منذ الرابعة من عمرها، عندما توفى والداها فى تلك الحادثة المشؤومة.

اهتم بها ابن عم والدها ، تشارلز كوبر، الذى يتولى ادارة إحدى أكبر شركات الاستيراد وأفضلها سمعة. لم تزر شامبورتن طوال السنوات الثمانى التى تلت وفاة جدتها، ولكنها ظلت تراسل شقيق الجدة بصورة متواصلة ومنتظمة. كانت تكتب له بالفرنسية التى علمتها اياها آلانور قراءة وكتابة... والتى ظلت تتعلمها فى المدرسة حتى تخرجها. تمنت اكثر من مرة زيارة الرجل العجوز التى تحبه من كل قلبها، ولكن عمها تشارلز كان يؤمن لها ولابنتيه الموجودتين معها فى نفس المدرسة رحلات سنوية رائعة إلى إسبانيا أو الى اسكتلندا أو الجزر اليونانية.

وعندما اصبحت فى الحادية والعشرين وبدأت تعمل فى شركة عمها التجارية، قررت قبول دعوة عاجلة من خال والدها لزيارة شامبورتن مرة اخرى بعد هذا الغياب الطويل . ذهبت فى مثل هذا الوقت من العام الفائت، فتعرفت الى بيار دوروشيه الذى تولى مهمة والده الراحل... وأحبته .

برز القصر الصغير الأنيق فجأة امام ناظريها، فشعرت بتلك الجاذبية القوية التى شدتها الى هذا المكان الرائع . هل يعود هذا التعلق بشامبورتن، لأن بعض دماء سان فيران تجرى فى عروقها؟ طبعا! ألم تكن جدتها الحبيبة ابنة هذه العائلة العريقة التى تتوارث القصر والأراضى المحيطة به منذ أجيال عديدة؟ انها جزء أصيل من هذا التراث...

- يا لروعة هذا المكان!

خفف بيار من سرعة سيارته وأوقفها فى فسحة على جانب الطريق.

مخصصة للسياح الذين يتوقفون فيها لتأمل المناظر الطبيعية الخلابة. اطفأ محرك السيارة، وسألها بهدوء:

- اذا كنت تعتبرينه رائعا الى هذه الدرجة، فلماذا تركته من قبل قائلة انك لن تعودى إليه ابدا؟

- أنت تعرف السبب، فقد كتبت لك واطلعتك على المشكلة لا يمكننى السكن فى شامبورتن طالما انك موجود هنا ولست قادرة على العيش معك كزوجة. اوه، بيار، لماذا لا تعترف بحقيقة الوضع القائم؟ فأنت وأنا نفكر بطريقتين مختلفتين بالنسبة الى الزواج و... قاطعها بحدة قائلا:

- صحيح، صحيح. فالزواج بالنسبة اليك ليس إلا خطوة أقدمت عليها بسبب الحماس ، وحرارة الصيف، والورود! هكذا كان مزاجك فى ذلك الوقت، وتصورت آنذاك انك قادرة على التراجع عن هذه الخطوة فى أى فترة لاحقة متى شئت... اذا تبين لك عدم جدواها.

- اوه، بيار! وماذا عنك أنت؟ ألم تتزوجنى لتحقيق مآرب معينة... لضمان مستقبلك مع الانسان الوحيد الذى قد يرث اراضى شامبورتن وقصرها؟ ولكنك اخطأت فى تقديرك، يا سيد دوروشيه. تصورت اننى سأكون تلك الزوجة البسيطة الخانعة، التى تمضى نهارها وليلها فى البيت لاعداد الطعام وغسل الثياب وتنظيف الأراضى والأثاث... فيما تسعى انت وراء المتعة الرخيصة فى أحضان امرأة اخرى!

كان يتطلع الى الخارج طوال الوقت الذى استغرقه حديثها الغاضب. وعندما توقفت لحظة لاستعادة انفاسها، ادار وجهه نحوها ببطء شديد ثم رفع أحد حاجبيه تهكما واستهزاء وقال:

- و أخيرا، وصلنا الى لب الموضوع وجوهره. لم يرد فى أى من رسائلك ذكر امرأة اخرى، كأحد الأسباب التى حملتك على هجرى. نفث الشق الأخير من كلامه بصوت مرتجف:

- انا لم اهجرك.

- مهلا، مهلا، ايتها العزيزة، فنحن لسنا الآن فى معرض التلاعب بالكلام. انت تركتنى ورفضت العودة مرة اخرى، مع اننى اقترحت عليك ذلك . هل توجد كلمة أخرى غير الهجر لوصف هذه الخطوة؟

توقف لحظة، ثم تابع ضاحكا:

- هل تتكرمين الآن بإبلاغى اسم المرأة ... التى يفترض اننى وجدت المتعة فى احضانها، اثناء الأشهر القليلة التى عشناها معا!

ضايقتها نظراته الساخرة فأبعدت وجهها عنه وقالت:

- سولانج بورجيه.

- ومن اخبرك ذلك؟

- هى بذاتها.

سألها بنبرة تنم عن الاستغراب... والطرافة:

- وصدقتها؟

استدارت نحوه وصرخت فى وجهه وقد تملكها الغضب:

- اوه، يكفيك استهزاء بى! من يعرف شهرتك كزير نساء قبل زواجنا، لايجد أدنى صعوبة فى تصديق كلام كهذا .

- زاد الحر الشديد داخل السيارة من توتر اعصابها، فشعرت كأنها تكاد

تختنق . كانت تأمل الى حد بعيد فى سماع نفيه لادعاء سولانج . لكنه لم يقل شيئا، فاضطرت ثانية الى قطع حبل الصمت الثقيل... قائلة:

- هل يمكننا الآن متابعة طريقنا الى القصر ؟

تنهد بارتياح، وقال:

- بعد قليل.

نظرت اليه، فلاحظت اختفاء ملامح التهكم والسخرية من وجهه وعينيه. تأملها بعض الوقت، ثم أخرج علبة سكائره وفتحها امامها لتأخذ احداها... فرفضت عرضه. أشعل سيكارته فتسمرت عيناها على القداحة...لأنها لم تكن هى نفسها التى كان يستخدمها قبل تسعة أشهر. نفث الدخان الى أعلى، وقال لها بصوت هادئ:

- ثمة أمر اريد اخبارك عنه. ذهبت أمس الى باريس بهدف تمضية الليل هناك، للتمكن من استقبالك صباحا وللبحث معك أثناء عودتنا فى موضوع هام الى حد ما.

- ذهبت لاستقبالى؟ لكن لماذا لم تكن فى المطار لدى وصولى؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وحزينة بعض الشىء، وبدا كأنه يسخر من نفسه. قال لها:

- لأننى نزلت ضيفا على صديق قديم، فأمضينا معظم الليل نستعيد ذكريات الماضى ونتحدث عن الحاضر والمستقبل. لم اتمكن من النهوض باكرا، فوصلت الى المطار حوالى الحادية عشرة الا ربعا. استفسرت عنك فى وكالات تأجير السيارات، حتى علمت انك اخذت سيارة رينو حمراء. لم أقدر

على اللحاق بك الا عندما ابتعدت عن ضواحى باريس وأصبحت على مقربة من شارتر، لأنك تقودين سيارتك بسرعة فائقة.

- ولكن... اذا كنت حقا تريد التحدث معى فى أمر هام، فلماذا لم تتجاوزنى وتوقفنى رغم قدرتك على ذلك؟

هز بيار منكبيه العريضين، وأجابها بشىء من الانفعال:

- يمكنك ايضا توجيه سؤال مماثل عن سبب اطالة السهرة امس، فالجواب واحد.

- لم افهم.

- اى ايضاح من جانبى يعنى كشفا تاما لروحى وهذا أمر أرفض القيام به أمام أى امرأة... حتى انت، يا امرأتى الحبيبة.

استشاطت غضبا بسبب تكرار هذه التسمية المزعجة، وقالت بحدة:

- توقف عن مناداتى على هذا النحو.

- لماذا؟ انت لا تزالين زوجتى! لم يتم أى طلاق بيننا، مع اننا لم نعش معا منذ حوالى سنة.

تململت ايلاين فى مكانها، وأزاحت شعرها الطويل المتموج عن وجهها وجبينها بحركة تنم عن العصبية. ارادت أن تقصه مع بداية الصيف فى العام الماضى وخلال السنة الحالية، ولكنها ترددت وامتنعت عن القيام بذلك... لأن هذا الرجل اللعين يحب الشعر الطويل. سألته بصوت، حاولت جاهدة أن يكون باردا وقاسيا:

- هل هذا هو الموضوع الذى تريد بحثه معى؟ الطلاق؟

www.elromancia.com

رفع يده لمسح العرق عن جبينه، بسبب هذا الحر الشديد. هيا لنقم بنزهة قصيرة بين تلك الأشجار.

ترددت... فهذه هى المنطقة التى كانا يأتيان اليها قبل عام، والتى شهدت أول عناق بينهما. تذكرت بسرعة كيف أجلسها قربه فى ذلك اليوم الربيعى الجميل، ثم مددها على بساط ناعم من الأعشاب وبدأ يعانقها برقة ونعومة... وظنت فى تلك اللحظات السعيدة انها تحبه وتريد الزواج منه...

فتح بيار بابها بحدة، وسألها بانفعال:

- هل ستأتين؟

لم يبال حتى بمجرد النظر اليها. بدا بعيدا عنها قلبا وقالبا، كانسان غريب تراه للمرة الأولى . هل هذا هو نفس الرجل الذى امضت معه بضعة اسابيع من الغرام والهيام وصلا خلالها الى ذروة السعادة؟ خرجت من السيارة ومشت معه نحو تلك البقعة الجميلة التى تظللها اغصان الشجر وتغطى ممراتها سجادة سميكة من الأوراق الصفراء الجافة. كان السكون شاملا، وكأن الطبيعة غارقة فى سبات عميق. قال لها بيار فجأة:

- مما لاشك فيه انك تعرفين الى حد ما رأى ارمون فيما يتعلق بموضوع انفصالنا. انه يحبنا... فهو خال والدك وزوج امى ورب عملى.

تجاهلت الجملة المتعلقة بالقربى، و قالت معلقة على الجملة الأولى:

- نعم، اعرف ذلك فقد كتب لى مرارا عن هذه المسألة.

- ربما تعرفين اذن، انه يتمنى من صميم قلبه قيام مصالحة بيننا؟

- اعرف ذلك ايضا، من خلال الرسالة التى كتبتها لى والدتك وأبلغنى فيها

عن مرضه... ورغبته فى مشاهدتى. وقد قلت لها جوابى، ان المصالحة مستحيلة.

قال لها بحدة:

- اطلعتنى امى على تلك الرسالة، ولهذا فقد رأيت من الضرورى التحدث معك قبل وصولك الى القصر.

صمت لحظة ثم مضى الى القول:

- لم يعد ارمون الآن قادرا على القراءة بسبب الضعف الشديد فى نظره، ولذا فأمى تقرأ له كافة الأمور التى يريد الاطلاع عليها. قرأت له رسالتك كما هى تماما، ولكنها استبدلت كلمة واحدة فقط بأخرى... بهدف اسعاده. انه يعتقد الآن ان مصالحتنا ممكنة... وهذه هى الكلمة البديلة، وانها ستتم فور وصولك الى القصر بعد فترة وجيزة.

تسمرت ايلاين فى مكانها ولم تستطع الحركة، وقالت باستغراب وانفعال شديدين:

- كيف تجرؤ على ذلك! كيف تجرؤ امك على التدخل فى شؤونى بهذا الشكل؟

توقف بيار عن السير، ثم استدار نحوها وقال بلهجة جافة:

- اسمحى لى باستخدام كلمة... شؤوننا، فأى مصالحة فيما بيننا تخصنى انا ايضا. واؤكد لك فى هذا المجال بأن والدتى تجرؤ على أى شىء تراه ضروريا، لأنها لم تعد تتحمل رؤيته يتألم ويتعذب بسبب تصرفاتك المتهورة الطائشة.

جرح الانتقاد كبرياءها وعزة نفسها، ولكنها رفضت منحه اى فرصة لتذوق طعم الانتصار عليها. رفعت حاجبيها ضاحكة، وقالت بتهكم واضح:

- لا، يا سيد دوروشيه. اتصور انها حورت جملتى عن استحالة قيام مصالحة بيننا، تمشيا مع طموحاتك ومصالحك أنت.

اتسمت ملامح وجهه بالحيرة والاستغراب لبرهة وجيزة، ثم قال:

- يالها من نظرية مثيرة للاهتمام! ولكنى لا ارى اى علاقة بين مصالحتنا المحتملة وطموحاتى، بغض النظر عن ماهية هذه الطموحات أو نوعيتها.

ضحكت باستهزاء بالغ، وسألته ببرودة:

- وهل نسيت لماذا تزوجتنى منذ البداية؟

اجابها بهدوء مثير للدهشة:

- لا، لم انس، ولكنى اود سماع رأيك انت بهذا الخصوص.

- كنت تعلم اننى سأرث جميع ممتلكات خال والدى، وأن الخال ارمون قد يغير وصيته ... اذا تزوجتنى... بحيث يجعلك شريكى التام فى الارث. وتعلم الآن ايضا انه اذا لم تتم المصالحة فيما بيننا، فقد يعمد الى تغيير وصيته مجددا بحيث أعود انا مرة اخرى الوريث الوحيد.

حدق بها بعض الوقت، ثم هز كتفيه وقال لها بصوت رقيق ساخر دخل الى قلبها كالسكين:

- انت واثقة جدا، على ما يبدو، بانه سيغير وصيته لتصبح فى صالحك وحدك.

- نعم! فأنا سأكون بعده الانسان الوحيد الباقى على قيد الحياة والذى تسرى فى عروقه دماء عائلة سان فيران. وقد ذكرت لى جدتى مرة...

قاطعها بلهجة تنم عن الكراهية والاستخفاف، قائلا:

- اوه، جدتك! سمعت كل شىء عنها وعن مؤامراتها، وكيف تفجر الحقد فى قلبها عندما أدركت انها لن ترث شيئا عن والدها...لأن شامبورتن بكاملها تركت لشقيقها الأصغر.

- هذا غير صحيح، غير صحيح اطلاقا! لم تحك اى مؤامرات ضده، ولم تشعر بأى حقد تجاهه . كانت تحبه كثيرا جدا.

- طبعا، طبعا! كانت تحبه الى درجة مذهلة، بحيث انها وقفت كسد منيع فى وجه زواجه أثناء شبابه من المرأة الوحيدة التى احبها، كيلا يرزق اولادا يرثونه... ويظل ابنها، والدك انت ، وريثه الوحيد. ولكن القدر احبط مخططاتها، عندما قتل والدك فى ذلك الحادث. فتولت الاهتمام بك، ودأبت على احضارك الى هنا كل عام وتدريبك على كيفية ارضاء ارمون بشتى الوسائل كى...

قاطعته وهى تصرخ بحدة بالغة:

- لم احاول ابدا القيام بأعمال تافهة كهذه، كما ان جدتى كانت أرفع بكثير من هذه المستويات الوضيعة التى تحاول تصويرها بها. يالك من انسان وضيع حاقد!

- وضيع وحاقد لأننى كشفت لك بعض الحقائق؟!! لم تسمعى الحقيقة كلها بعد، يا زوجتى العزيزة. فعندما قررت الهرب قبل تسعة أشهر لاعتقادك بأن الزواج منى لا يناسبك، لم تفكرى ابدا بتأثير ذلك التصرف الأرعن على خال والدك. نسيت انه من النوع التقليدى جدا فى افكاره ومعتقداته، وان الزواج بالنسبة اليه ارتباط روحى مقدس يجب الا يعمل أحد على فسخه. لو لم يكن مؤمنا بهذا المبدأ طوال حياته، لكان حاول تحطيم زواج امى من ابى

والسعى إلى انفصالهما وهو لايزال فى ريعان الشباب.

صمت بضع لحظات، وكأنه ينتظر منها تعليقا على كلامه. ولكن الدهشة التى اصابتها، لدى سماعها هذه الأقوال عن اناس تعرفهم طوال حياتها، عقدت لسانها وشلت تفكيرها تماما. اضاف بيار قائلا، بلهجة اكثر نعومة:

- اعتقد ان خالك حاول جاهدا انقاذ زواجنا ، وذلك عن طريق الكتابة اليك وتقديم الارشادات والنصائح . ولكنك قررت تجاهل نصيحته ورفضها، فأحس بانزعاج فائق. قد لا تدركين اهمية هذه النقطة بالذات، ولكن الطاعنين فى السن ينقلبون احيانا ضد الذين يجرحون مشاعرهم. وعليه، فقد تكونين على حق فيما يتعلق باحتمال تغييره وصيته ... مع فارق بسيط، وهو ان التغيير سيكون لمصلحتى انا وليس أنت.

ثم ابتسم بسخرية، ومضى الى القول:

- اذا اخذت هذه المسألة فى اعتبارك، فسوف تجدين ان التعديل الذى أجرته والدتى على نص رسالتك لا يناسب طموحاتى اطلاقا وباختصار، فاصرارك على عدم اجراء مصالحة فيما بيننا سينفعنى اكثر بكثير مما يضرنى.

- اذهلتها كلماته وبرودة اعصابه، فظلت صامتة لا تعرف ماذا تقول ... أو تفعل . حدقت بهذا الرجل الأسمر القاسى الذى يقف امامها بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين وكأنه مجرم شرير ارسلته عصابة لمعاقبتها وتعذيبها. اذا أصرت على موقفها الحالى بالنسبة للانفصال، فسوف تدفع الثمن غاليا ... ستخسر شامبورتن! اقترب منها، وقال لها بلهجة رقيقة ناعمة توحى باستعداده للمصالحة:

- بما انك الآن هنا، فقد نتمكن من التواصل الى بعض الترتيبات.

خافت من مجرد احتمال اقترابه منها الى درجة تسمح بملامستها أو ضمها اليه، فصرخت قائلة:

- لا، لا يمكننى! لا اريد!

استدارت بسرعة وركضت نحو سيارته التى ترك مفتاحها فيها. اذا وصلت اليها قبله، فقد تتمكن من ادارة محركها وقيادتها الى القرية بعيدا عنه. زلت قدمها على أوراق الشجر الجافة، فهوت الى الأرض وارتطمت ركبتها بحجر كبير. تألمت بشدة، ولكن جرح الكبرياء كان اعمق وأشد ايلاما. همت بالنهوض، فأحست بيد قوية تمسك بذراعها وترفعها. حاولت التخلص منه، فلم تفلح. قالت له بحدة بالغة:

- اتركنى! لا تلمسنى!

ضغط على ذراعها بعنف أوجعها كثيرا، فكررت محاولاتها اليائسة للتخلص من قبضته الفولاذية... ولكن دون فائدة. جذبها نحوه فجأة وبشكل مؤلم للغاية، فأحست بأن ذراعها تكاد تنفصل عن كتفها. امسك بذراعها الأخرى وضمها اليه، فنظرت اليه بتمرد واضح عبر خصلات الشعر التى غطت معظم وجهها. قال لها بعصبية شديدة:

- حان الوقت، ايتها الجبانة الأنانية الصغيرة، للتوقف عن التهرب من مسؤولياتك. لقد تحسنت حالة خالك النفسية والمعنوية بشكل ملفت للنظر، منذ أن ابلغته أمى عن مصالحتنا المحتملة... وهو يتمنى الآن رؤيتك. فاذا اقتحمت غرفته وقلت له ان المصالحة مستحيلة، فسوف يصاب بصدمة قوية تعجل فى وفاته. هذا هو السبب الوحيد الذى حملنى على التحدث اليك، وتحذيرك.

سيطرت بعض الشىء على ارتجاف جسمها، وقالت بصوت منخفض

مشتعل غضبا وانفعالا:

- لا تزعج نفسك بمثل هذه الإيضاحات التى لا ضرورة لها فانا أعرف تماما ما تريد قوله. ولكنى لم احضر الى شامبورتن لمصالحتك، او الاتفاق معك على امور معينة. اريد الطلاق، وما من شيء فى الدنيا سيحملنى على تغيير هذا الرأى... بما فى ذلك احتمال خسارتى حق الوراثة.

ثم هزت رأسها بعنف، وصرخت بوجهه قائلة:

- ألا ترى اننى اكرهك؟

- لا أرى الآن الا شيئا واحدا، وهو اننى اثير فيك مشاعر العنف... التى افضلها كثيرا على اللامبالاة. ولكننى لم اكن انوى ان اقترح تغيير رأيك بالنسبة الى.

تنهدت ايلاين بعصبية وحاولت مرة اخرى التملص من قبضته... ولكن دون جدوى. بدأت حرارته تنفذ الى اعماقها، يداه القويتان اللتان تتحركان على ذراعيها تثيران فيها عواطفها الكامنة. احست برغبة خفية فى مغازلته... لايقاظ البركان النائم فى داخله، ولنفخ الرماد عن الجمر! أبعدت وجهها عنه وأبقت على تصلب جسمها كما هو بهدف مقاومة الرغبة والاغراء. قالت له متمتمة:

- ماذا كنت ستقترح اذن؟

- التظاهر باننا تصالحنا.

- التظاهر؟

- نعم. يمكننا التظاهر بذلك لفترة قصيرة من الوقت، لأجل الرجل

العجوز الراقد على فراش الموت... الذى بذل اقصى جهده لإسعادنا، والذى أحبك من كل قلبه وعاملك كابنة له وليس كالحفيدة الوحيدة لشقيقته الكبرى.

تركها بيار فجأة، ثم ابتعد عنها خطوتين وسألها:

- هل اطالبك بالكثير، اذا اقترحت عليك الاقدام على هذا الأمر لأجل ارمون؟ الا يمكنك وضع مشاعرك جانبا لبعض الوقت، وأخذ مشاعره بعين الاعتبار؟

لا ليست انانية... أو على الأقل فهى لا تتعمد التصرف بأنانية! لقد أحبت ارمون الطيب منذ طفولتها... ارمون الرقيق القلب والأحاسيس الذى علمها الرسم والموسيقى واطلعها الى حد ما على التاريخ الحافل لهذه المنطقة المجيدة. أحست بأن رد فعلها الأول على اقتراح بيار يجب ألا يكون سلبيا، وانه يتحتم عليها القبول بصورة فورية. ولكن الخطوة الاندفاعية التى اقدمت عليها قبل حوالى سنة، أدت الى مصاعب ومشاكل كانت فى غنى عنها. ترددت فى اعطاء الجواب، وراحت تتأمل وجهه علها تقرأ فى ملامحه ما يلقى بعض الضوء على شعوره الحقيقى بالنسبة لهذه المسألة.

لماذا قدم اليها فى هذا الوقت مثل هذا الاقتراح؟ هل سيتمكن من تحقيق أى انجاز، اذا تظاهر بالمصالحة والوفاق؟ انه رجل عملى جدا بطبيعته، وعليه فليس من المعقول ابدا ان يكون اقتراحه مجردا تماما من الأنانية أو المصلحة الذاتية. لن يحرمها ارمون من كل شيء... كل ما فى الأمر ان الأمور ستعود الى ما كانت عليه... سيصبح بيار مجددا شريكها فى وراثة شامبورتن، كما كان يشاركها فى وقت من الأوقات حياتها... قالت له:

- لا، انك تطلب منى اكثر بكثير مما يمكننى القبول به. لن افعل ذلك يا بيار.

لم تكد تنتهى من جملتها، حتى احست بموجة من الخجل العارم تتفاعل فى نفسها وقلبها . كان بيار محقا فى قوله... فها هى الآن ترفض التضحية ولو قليلا، لأجل رجل طاعن فى السن عاملها دائما بكل حب وحنان. ازداد خجلها حتى كادت الدماء تتفجر من وجنتيها، فغطت وجهها لحمايته من نظرات التأنيب والازدراء التى تلمع فى عينيه السوداوين.

خيم الصمت ثوان طويلة، فأعدت ايلاين نفسها لمواجهة غضبه العارم وكلماته الجارحة. ولكنه اكتفى بهز كتفيه، ثم استدار نحو السيارة قائلا لها بصوت يوحى باللامبالاة والاحتقار والسخرية:

- لم تعد ثمة حاجة للاستمرار فى هذا الحديث. هل تريدين الذهاب الآن الى البيت، ام تفضلين العودة الى القرية؟ يمكنك انتظار مارسيل لاستعادة سيارتك، ثم تفرين مرة أخرى الى لندن... متخلية مجددا عن مسؤولياتك وواجباتك.

اثارت كلماته مخاوف جديدة فى نفسها. أليس محتملا انه لا يريد عودتها الى القصر؟ هل يأمل فى اقدامها على الهرب ثانية، ليخلو الجو له ويصبح سيد شامبورتن دون منازع؟ قالت له بهدوء بالغ:

- اريد الذهاب الى القصر. فقد وعدت ارمون بالمجىء.

هز كتفيه للمرة الثانية بتلك اللامبالاة المزعجة، التى تشير الى انه غير مهتم على الاطلاق بأى من قراراتها، ثم قال لها ببرودة جافة:

- اذن، هيا بنا.

٢ ـ التظاهر.. أفضل الحلول

تبعته الى السيارة، وهى لا تزال متضايقة جدا من سرعة وسهولة تقبله رفضها القاطع الجازم لاقتراحه بإجراء مصالحة صورية مؤقتة. وما ان خرجت من الظل حتى شعرت بأن الضوء الساطع يكاد يعمى بصرها والحرارة القوية تلسع جسمها.

استدار بيار حول السيارة ليفتح باب السائق ويجلس وراء المقود، فقررت ايلاين اغتنام الفرصة والتخلص من جوربيها الطويلين الممزقين. تأكدت من عدم وجود أى سيارة اخرى على الطريق، ثم رفعت فستانها وخلعت الجوربين بخفة و رشاقة.

- هل أصبحت مستعدة الآن للذهاب؟

رفعت رأسها نحوه بحدة وانفعال بالغين، لإدراكها انه كان يراقبها، وقالت:

- سأكون مستعدة حينما انتهى من تسريح شعرى.

- يمكننا القيام بذلك ونحن فى طريقنا الى القصر، اذ يكفينا التأخير الذى حصل الآن. ستظن أمى أننا تعرضنا لحادث أو وقعنا فى مشكلة.

تحمست للرد عليه بأنها ليست المسؤولة عن التأخير، وبأنها غير مهتمة

إطلاقا بقلق أمه أو عدم قلقها، ولكن نظرة واحدة الى عينيه القاسيتين أقنعتها بعدم فائدة هذه المحاولة. جلست قربه بانزعاج شديد، وبخاصة عندما تذكرت المرات القليلة التى تخاصما فيها خلال الأشهر الأربعة لوجودهما معا. قد يتصور الكثيرون ان البريطانية باردة هادئة والفرنسى انفعالى حاد الطباع، ولكن تصرفاتهما بدت على العكس من ذلك تماما. كان يدعها تصب جام غضبها عليه، دون إزعاج نفسه حتى بمجرد الرد عليها. وما ان تنتهى من هجومها، او تتوقف لحظة لالتقاط أنفاسها، حتى كان يقول لها كلاما هادئا ومنطقيا عن موضوع مختلف. لم يبال مرة بالدفاع عن نفسه او بمهاجمتها، وكان يجعلها تشعر دائما بانها أرهقت أعصابها وصوتها... دون أى فائدة. وعندما ادركت بأنها غير قادرة على إغضابه بأى وسيلة، او حتى على جره الى أى مشادة كلامية، بدأت تخاف منه الى حد ما.

أخرجت مرآة صغيرة من حقيبة يدها الصغيرة، فهالها منظرها الكئيب المرعب. لا، لن تسمح لمارجريت سان فيران برؤيتها على هذا النحو المزعج! تناست انفعالها وارتباكها على الفور، وركزت كافة اهتمامها على تجميل نفسها بالقدر الذى تسمح به المستحضرات القليلة الموجودة معها.

نزلت من السيارة فى باحة القصر، وهى تشعر ببعض الارتياح النفسى والمعنوى. فها هى فى كامل اناقتها وزينتها، وها هى رائحة الورود العطرة تعبق فى اجواء القصر الجميل... الذى تحبه منذ طفولتها. فتحت بوابة القصر على مصراعيها، وخرج منها رجل أشيب الشعر تغطى نصف وجهه الذى يضخ صحة وعافية ابتسامة عريضة صادقة. اقترب منها جاك وهو كبير الخدم فى قصر شامبورتن منذ سنوات عديدة، ورحب بها قائلا:

- اسعد الله أوقاتك يا سيدتى، وأهلا وسهلا بك. كنا بدأنا نظن بأن شيئا أعاق وصولك. دعنى احمل الحقيبة عنك، يا سيد بيار. سآخذها الى غرفتك، ياسيدتى. السيدة سان فيران موجودة فى قاعة الاستقبال، وأبلغتنى بأنها تريد مقابلتك فور وصولك. دخلت القصر، فأحست كأنها تدخل عالما آخر... وكأنما هذه الجدران التى تحمى القصر من الحرارة الشديدة، تحميه ايضا من ضجيج العصر الحديث وضوضائه. شقت طريقها بسهولة نحو قاعة الاستقبال، وهى تشعر بأن بيار لا يزال وراءها.

لدى دخولها القاعة الكبيرة، استدارت نحوها السيدة المسنة الهادئة التى كانت واقفة امام احدى النوافذ... وفتحت ذراعيها قائلة:

- ايلاين، حبيبتى، أهلا بك.

طوقتها الذراعان النحيلتان، فأحست ايلاين بالدموع تنساب حارقة من عينيها. هذا هو احد الأمور الذى لم يتغير او يتبدل ابدا... طريقة ترحيب مارجريت بها، بحرارة وإخلاص وصدق. أبعدتها السيدة المسنة عنها قليلا لتتمكن من تأملها بعينيها الزرقاوين الجميلتين، اللتين أورثتهما لابنها، ثم قالت لها بلهفة وهى لا تزال ممسكة بكتفيها:

- كم أنت نحيلة وشاحبة الوجه، وكم تبدين متعبة ومرهقة أيضا! ولكننا سنغير كل هذه الأشياء، قريبا بطعامنا الجيد وطبيعتنا الخلابة الدافئة. لقد حان وقت عودتك الى البيت، ياعزيزتى ، لتتنشقى الهواء النقى وتتمتعى بحرارة الشمس. اشتقنا لك، يا ايلاين.

ثم نظرت الى ابنها الواقف وراء زوجته، وسألته بهدوء:

- هل تحدثت معها، يا بيار؟

اجابها ببرودة وايجاز:

- نعم. تحدثنا.

نظرت اليه والى ايلاين مستفسرة، ثم سألته:

- والنتيجة؟

- النتيجة انها لا تزال عنيدة كما نعرفها.

ثم استدار نحو الباب قائلا:

- اعذراني الآن لأني مضطر للذهاب.

نادته أمه بصوت هادىء:

- انتظر يا بيار. ارمون يريد رؤيتكما انت وايلاين معا فى وقت لاحق. سوف يستيقظ على الأرجح حوالى الخامسة والنصف. فأرجو منك الحضور الى غرفته فى ذلك الموعد.

هز رأسه موافقا، وغادر القاعة. تطلعت مارجريت حولها، ثم قالت لايلاين وهى تشير الى قطع الأثاث الأنيقة النادرة:

- الا تعتقدين انه من الأفضل لنا أن نشرب الشاى فى مكان لايغلب عليه طابع الجدية والرسميات كهذه القاعة؟ هيا بنا الى غرفة المكتبة.

سارتا فى ممر طويل باتجاه قاعة الدخول، ثم تحولتا نحو غرفة أصغر قليلا تضم مجموعة كبيرة من الكتب القيمة وعددا لابأس به من القطع والتحف الرائعة التى جمعها ارمون سان فيران خلال جولاته الخارجية المتعددة. انها الغرفة التي كانت ايلاين تفضلها دائما، بسبب الجو العائلى الدافىء الذى يخيم عليها. كل شىء يعجبها هنا... المقاعد الوثيرة المريحة،

الكتب، الموسيقى، واللوحات الفنية التى تغطى معظم الجدران... والتى رسمها الفنان الموهوب والمرهف الأحاسيس ارمون سان فيران فى شبابه. تفاعلت فى نفسها مشاعر العودة الى... البيت، على الرغم من تناقضها مع مشاعر الازدراء التى تكنها لبيار.

جلست فى نفس المكان الذى كانت تفضله دائما، وراحت تتأمل الطاولة الخشبية الرائعة التى احضرها ارمون قبل سنوات عديدة من الهند. وما هى الا لحظات وجيزة، حتى دخلت خادمة شابة ووضعت صينية الشاى على تلك الطاولة. قالت مارجريت للخادمة، التى ابتسمت لايلاين بتهذيب واحترام:

- مارى، هذه هى السيدة دوروشيه. اذهبى الآن الى الغرفة التى ستنام فيها، واخرجى ثيابها من الحقيبة ثم علقيها فى خزانة الملابس.

- سمعا وطاعة، يا سيدتى.

فتحت مارجريت غطاء الابريق الفضى الأنيق وهزت رأسها بشىء من الحدة قائلة:

- آمل فى ان يكون الماء حارا بشكل كاف. لم يعد بامكاننا هذه الايام الحصول على خدم يبقون معنا لفترة طويلة. عينت مارى لمجرد انها ابنة احد العمال. فهى ليست ذكية ابدا، ولديها ذاكرة ضعيفة جدا. لم نشرب الشاى منذ ذهابك، ولكننى أعلم انك تحبينه فى مثل هذا الوقت من النهار... كجدتك الانور تماما. هل أضع لك، كالعادة، قليلا من الحليب؟

- نعم، شكرا.

صبت لها الشاى وأضافت اليه الكمية المطلوبة من الحليب، ثم سألتها وهى تعطيها الفنجان:

- اخبرينى الآن عما كنت تفعلين فى لندن، طوال هذه الأشهر التسعة.

- أفضل ان تخبرينى انت عن الخال ارمون. اخبرنى بيار ان حالته قد تحسنت بعض الشىء.

- نعم ... طبعا. ولكن بيار و أنا...

- اوه، اعرف انكما تواجهان القليل من المشاكل . ولكن، هل ثمة زواج لا يواجه عددا من المصاعب والعراقيل فى سنواته الأولى... وبخاصة عندما يكون الزوجان من بيئتين وطبيعتين مختلفتين مثلكما؟ أنا خبرت جزءا من هذه المشكلة بنفسى. فزوجى الأول جان، كان فلاحا ملتصقا بالأرض والتربة إلى حد بعيد. كان رجلا بسيطا فى ذوقه وعاداته، وقويا كالصخرة التى تحمل عائلته اسمها، فى حين كنت انا من الطبقة المتوسطة فى أعلى درجاتها الاجتماعية. كان والدى استاذا ناجحا، ووالدتى ابنة عائلة من التجار المرموقين. هل تريدين مزيدا من الشاى؟ قطعة حلوى؟ هيا، هيا، ايتها العزيزة، يجب زيادة وزنك قليلا. اعتقد انك كنت تتضورين جوعا هناك فى لندن.

وضعت ايلاين فنجانها على الطاولة هى تقول:

- لا، شكرا. ايتها السيدة... الخالة مارجريت... اوه، لم أعرف ابدا كيف يتحتم على مناداتك.

ابتسمت السيدة المسنة على الفور، وقالت:

- افضل كلمة خالتى أكثر من أى شىء آخر. فمنذ كانت جدتك تحضرك الى هنا، وأنا أشعر نحوك كخالة حقيقية وليس كزوجة خال والدك. ماذا كنت تريدين قوله، ايتها العزيزة؟

- ارتكبت خطأ كبيرا، يا... خالتى مارجريت، عندما قرأت رسالتى للخال ارمون.

- حقا؟ هل أخطأت فى قراءة موعد وصولك الى المطار؟ هل وصلت الطائرة بعد الموعد الذى كنت أتصوره؟ ألهذا السبب تأخرتما؟ اوه، كم شعرت بالقلق عليكما! يا للأفكار السوداء التى ازعجتنى و أرعبتنى! تصورت أنه قد وقع لكما حادث بسبب تهور بيار فى القيادة، وانك أصبت ولم يعد بامكانك الحضور الى هنا! لاشك فى ان ذلك كان سيقضى بالتأكيد على ارمون، ويودى بحياته!

- لا، لم يكن التأخير بسبب ذلك. فقد وصلت الطائرة فى موعدها المقرر، ولكنى لم أجد أى أحد بانتظارى بسبب تأخر بيار بعض الوقت. استأجرت سيارة وقدتها بنفسى، ولم يلحق بى بيار الا قبل القرية ببضعة كيلومترات. الموضوع هو...

- اين هى سيارتك اذن؟ شاهدتك من النافذة العلوية تنزلين من سيارته.

- لقد تعرضت لحادث بسيط... انزلقت بى السيارة عن الطريق ووقعت فى احدى القنوات الجافة. ولكن...

- اه، كنت أشعر بشىء ما يزعجنى! السرعة، أليس كذلك؟ لا، لا تحاولى الانكار، فأنت تحبين السرعة. هذا هو اذن سبب التأخير؟

- لا... ! توقفنا قليلا قرب الغابة للتحدث و...

وقفت مارجريت، وهى تقاطعها للمرة الثالثة قائلة بتهذيبها المعتاد:

- اوه، نعم، فلديكما الكثير من الأمور الخاصة التى تريدان بحثها بعد

هذه الأشهر الطويلة من الفراق. سأخبر ارمون بوصولك، فيما تذهبين انت الى غرفتك لكى تغسلى وجهك وتستبدلى ثيابك. خصصنا لك الجناح الموجود فى برج القصر، فى حين ان ارمون موجود بالطبع فى الغرفة الوسطى للجناح الرئيسى. سأقابلك هناك خلال نصف ساعة. الى اللقاء، ابتها العزيزة.

اعترفت ايلاين لنفسها بأن براعة مارجريت فى المناورة، منعتها من الحديث عن استحالة قيام مصالحة مع ابنها. أرادت ارضاء زوجها المريض واسعاده بأى طريقة، فكذبت عليه عندما قالت له ان الزوجين الشابين سوف يعودان الى بعضهما. وها هى الآن تبذل اقصى جهدها لتحويل الكذب الى حقيقة، او على الأقل لاظهاره كذلك.

توجهت الى غرفتها، وهى تشعر مرة أخرى بالخجل العميق نتيجة تصرفاتها التى قد تنعكس سلبا على الرجل العجوز الطيب. فرفضها الساخط والقاطع للتظاهر بالوفاق مع بيار، لإراحة بال ارمون فى أيامه الأخيرة، يدل على الخبث واللامسؤولية... فيما لو جرت مقارنته مع اخلاص مارجريت المتفانى تجاه زوجها واستعدادها للقيام بأى شىء من أجل ادخال البهجة الى قلبه الكبير. أين الضرر الذى سيلحق بها، اذا تظاهرت امام ارمون بانها اتفقت مع بيار؟ لماذا تزعج نفسها اذن، بالاصرار على ان مارجريت ارتكبت خطأ فادحا؟ لماذا لا تماشى هذه الزوجة الوفية فى محاولاتها الحثيثة والجادة، لمنح ارمون بعض السرور والفرح؟ ستفعل ذلك... وستثبت لبيار بصورة نهائية انها ليست أنانية او جبانة كما يعتقد.

فتحت احد الأبواب الثلاثة لخزانة الحائط الضخمة. فرأت ان الخادمة مارى قامت بعملها على احسن وجه. دفعها حب الاستطلاع الى فتح البابين

الآخرين، فضايقها كثيرا وجود ملابس واحذية تخص بيار. لا، لن تسمح للتظاهر بالوفاق بالوصول بها الى درجة مشاركته غرفة نوم واحدة! سيكون الأمر محفوفا بالمخاطر، وعليه فانها ستطالبه بعد مقابلتهما ارمون بالانتقال الى حجرة نوم أخرى.

خلعت فستانها وعلقته فى خزانة الملابس، ثم أخذت العلبة الكبيرة التى تضم مستحضرات التجميل وفتحت بابا داخليا يؤدى الى الحمام. وما ان عادت الى الغرفة، حتى فوجئت بالرجل الذى تريد الانفصال عنه يخلع قميصه ويرميه فى السلة المخصصة للثياب الوسخة. ولما استدار نحو باب الحمام وشاهدها أصيب بدهشة قوية. ولكنه استطاع السيطرة على أعصابه بسرعة، وقال لها فيما كان يتفحصها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها:

- اوه، يالها من مفاجأة... ومفاجاة سارة جدا بالتأكيد! لم أكن أتوقع مجيئك الى هذه الغرفة الا بعد بضع دقائق.

تأملت صدره العريض وساعديه القويين وعضلاته المفتولة، بالاضافة الى سمرة بشرته البرونزية الناجمة عن العمل ساعات طويلة فى الحقول والبساتين. أثارها مظهره الجذاب، كما أثاره على ما يبدو وقوفها امامه بنصف ثيابها. أجبرت نفسها على التطلع نحو النافذة، لكى تتجنب النظر الى جاذبيته ووسامته المغرية، وقالت له:

- طلبت منى أمك الحضور الى هنا... جاك احضر حقيبتى الى هذه الغرفة... ومارى علقت ثيابى فى الخزانة. لم... لم أعرف... انك لا تزال تنام... هنا.

تضايقت ايلاين من نفسها ومن هذا الدفاع المتردد عن حقوقها.

فاستشاطت غضبا... وبخاصة عندما شاهدت ابتسامته الهازئة. ضربت السجادة الخضراء الناعمة بقدمها، وأضافت قائلة بحدة بالغة:

- نعم، نعم، أنا لا أرغب ابدا فى مشاطرة أى غرفة معك.

ازدادت ابتسامته اتساعا، وقال لها ببرودة وهو يدخل الحمام:

- اقترح عليك اذن الاتصال مجددا بوالدتى، علها تجهز لك غرفة اخرى.

ظلت ايلاين واقفة فى مكانها قليلا، وقد أدركت بأسف ان أى اتصال من هذا القبيل بمارجريت سيعنى اعترافا واضحا من جانبها بعدم قيام مصالحة حقيقية مع بيار. وحتى اذا اتفقت ومارجريت على ذلك، فسوف يكتشف العاملون فى القصر انها لا تزال منفصلة عن بيار... وستصل هذه المعلومات عاجلا او اجلا الى ارمون، فتفشل جميع المحاولات الطيبة التى تبذلها السيدة المسنة لاسعاد زوجها المحتضر.

ارتدت ثيابا جديدة وسرحت شعرها الطويل، ثم انحنت امام المرآة لوضع اللمسات الأخيرة على شفتيها وعينيها. عاد بيار فى تلك اللحظة وتوجه الى الجزء الخاص به من الخزانة الكبيرة، قائلا بلهجة مرحة:

- اوه، إنك لا تزالين هنا؟

ترددت قليلا، ثم قالت له بصوت أرادته منخفضا:

- بيار... لابد لى من ابلاغك بأننى ... غيرت رأيى.

- مرة أخرى؟ لماذا لا تستقرين على رأى معين ومحدد، يا صغيرتى؟ هل هذا القرار المفاجىء ناجم عن تبدل فى مشاعرك تجاهى؟

لا، لن تسمح له باثارة اعصابها... وتعذيبها. اجابته بسرعة:

- لا، لا! كل ما فى الأمر، اننى قررت الموافقة على اقتراحك باقامة مصالحة ظاهرية.

ارتدى قميصه، ثم ابتسم بخبث قائلا:

- يبدو ان احتمال حرمانك من ارثه ذو تأثير قوى على قراراتك وتصرفاتك!

- لا، ليس لهذا الأمر أى علاقة اطلاقا بقرارى. ادركت بعد تحدثى مع والدتك، ان التظاهر هو أفضل الحلول. تأكد يا بيار، انى افعل ذلك لأجل الخال ارمون دون سواه... وليس لدى لأى سبب آخر. هل سمعت؟ هل فهمت؟

اجابها ببرودة:

- نعم، سمعت وفهمت.

ثم ابتسم ثانية، ومضى الى القول:

- هذا يعنى انك ستقضين هنا فترة أطول مما كنت تتوقعين. فوجئت ايلاين بتلك الفكرة، التى لم ترد على بالها من قبل. اتخذت قرارا هاما كهذا بعفويتها وتسرعها المعتادين ، دون التفكير بالمضاعفات او العواقب. لابد لها الآن من الاجابة بأسلوب ذكى، كى لا تتعرض لاستجواب يؤلم قلبها ويجرح كرامتها. قالت له بهدوء ينم عن الثقة بالنفس:

- لن أبقى هنا الا بقدر ما تدعو اليه الحاجة.

- قد لا يموت الرجل قبل اسابيع، وربما أشهر. فوجودك هنا واعتقاده بأننا لم نعد منفصلين، سيمنحانه بالتأكيد دافعا جديدا للحياة ويطيلان عمره. آمل فى ان تدركى ذلك وتكونى مستعدة لدفع الثمن المترتب على هذا الأمر.

- اى ثمن؟

- ثمن التظاهر طبعا بأنك زوجتى المحبة العاشقة.

كيف يمكنها التحدث معه بروية وهدوء أعصاب عن موضوع حساس كعلاقتهما الزوجية، وهى معه الآن فى هذه الغرفة بالذات التى شهدت اجمل ساعات حياتها وأسعدها؟ كل حركة بسيطة يقوم بها... كل نظرة يوجهها اليها... وكل كلمة يقولها لها... تجذب انتباهها الى رجولته القوية وجاذبيته المذهلة وسحره الأخاذ. قالت له بحزم، وهى تبعد وجهها عنه مجددا:

- لن يكون التظاهر ضروريا الا امام الخال ارمون فقط.

- لا أوافق على هذا الرأى اطلاقا. جاك رجل محب للاستطلاع بشكل ملفت للنظر، وسيخبر زوجته عن كل شىء نقوم به... او لا نقوم به. والخادمة الصبية مارى ليست غبية كما تبدو، ووالدها يعمل معنا فى الحقول. اذا أردنا ألا يشتبه ارمون بأى امر غير طبيعى، فما علينا الا التصرف بحذر شديد. هل تعتقدين انك قادرة على تحمل مصاعب التظاهر كزوجة مخلصة مطيعة، لمدة اسبوع مثلا او ربما لشهر؟ قد يكون من واجبى تحذيرك مسبقا، بأنك لن تكونى قادرة على مهاجمتى كعادتك او الكشف عن حقيقة شعورك تجاهى الا فى هذه الغرفة.

ثم ضحك بنعومة ماكرة، واضاف قائلا:

- أوه، نسيت انك لا تريدين الاقامة معى فى غرفة نوم واحدة. ولكنك تخلقين مشكلة كبيرة، لمجرد رغبتك فى النوم على انفراد. فلو كنت أقل طهارة وعنادا، لكان باستطاعتنا الاستفادة كثيرا من مصالحتنا المزعومة والتمتع بها الى أقصى الحدود.

طوق خصرها بذراعه وأدارها نحوه، ثم ركز نظراته على وجهها و أحنى رأسه ليعانقها. رفعت يديها على الفور لتصفعه، ولكنها لم تقدر على تحقيق هدفها فقد أمسك بمعصمها وأنزل يديها، قائلا:

- رباه، يا لهذه العصبية! ستضطرين للسيطرة عليها والحد منها، اذا كنا سننجح فى ادعائنا وتظاهرنا.

- عليك اذن التوقف عن تعذيبى و ايلامى بهذه الطريقة ... وايجاد سرير آخر لتنام عليه!

حررت يديها من قبضته وهمت بالخروج من الغرفة، فاستوقفها مستفسرا:

- ولماذا أريد تعذيبك، يا ايلاين؟ ما هو الغرض الذى سيحققه هذا الأمر بالنسبة لى؟

استدارت نحوه والشر يتطاير من عينيها وقالت له متهمة:

- انك تأمل فى ارهابى الى درجة تدفعنى الى مغادرة شامبورتن. تريدنى ان أذهب عوضا عن المضى فى هذا الادعاء، كى يحرمنى الخال ارمون من الارث. ألم تخبرنى بنفسك ان المصلحة لا تخدم اغراضك وأهدافك؟ ولكنى باقية هنا، يا بيار دوروشيه. سأبقى لبضعة أيام، ولكنى... لن ... لن أتمكن من البقاء معك فى سرير واحد. أوه، بيار، حاول فهم السبب. لا يمكننى... مع شخص لا أحبه.

حدق بها صامتا لبعض الوقت، فتكون لديها انطباع بأن لونه شحب وعينيه اشتعلتا غضبا وحنقا. ولكنه هز كتفيه وذهب لاغلاق باب الحمام، الذى تركه مفتوحا لدى خروجه منه قبل قليل. وعندما عاد إليها، تمتم قائلا:

- لديك بعض الأفكار الغريبة حقا! على أى حال، يمكنك الانفراد بهذه

الغرفة. سأنام فى غرفة الحضانة.

- غرفة الحضانة؟

- ألا تذكرينها؟ انها الحجرة الثانية فى هذا الجناح، التى كنت تنامين فيها كطفلة... والتى كنا سنخصصها قريبا لطفلنا، لو لم تهربى فى العام الماضى هل تذكرين؟ أعتقد أن هذا هو الحل الأفضل، الذى يوفر علينا أى تعليق او انتقاد نحن بغنى عنهما. هل يناسبك ذلك؟

هزت رأسها بذهول وغباء، وحولت وجهها عنه مرة أخرى كيلا يشاهد ملامحها ونظراتها الزائغة. آلمتها ملاحظته العابرة عن... طفلهما... اكثر من أى شىء آخر. احدثت تلك الجملة البسيطة العادية شرخا كبيرا فى الأسوار القوية التى بنتها حول نفسها لصد هجماته المحتملة... وابقاء عواطفها داخل قلاع محصنة كيلا تضعف او تنهار. وفجأة، سمعته يقول معلقا على موافقتها الصامتة:

- حسنا، لقد سويت المشكلة. هيا بنا اذن لمقابلة خالك وحاولى التظاهر بأنك لست غاضبة منى الى هذه الدرجة... يا صغيرتى. اذا لم تفعلى ذلك، فسوف يكتشف الخال الحقيقة فكرى جيدا بهدف هذا التظاهر المؤقت! اذا كان تمثيلك جيدا، فلن يحرمك من الارث. الا تساعدك هذه الفكرة على اراحة اعصابك ولو قليلا؟

كان ارمون سان فيران مستلقيا على سرير ضخم، يواجهه نافذتين طويلتين تشرفان على النهر. وقفت ايلاين قرب السرير، فتأثرت لأنها لم تشاهد فى حياتها شخصا مريضا ومحتضرا الى هذه الدرجة. فعندما مرضت جدتها ووضعت فى غرفة العناية الفائقة، التى لم تغادرها الا جثة هامدة، قرر عمها تشارلز عدم السماح لها بزيارة جدتها.

أحست بصدمة عنيفة، وهى ترى امامها ما تبقى من الرجل الطيب الذى تحبه كثيرا. قبلته على جبينه بشفتين مرتعشتين، وقالت له انها مشتاقة كثيرا لرؤيته رفع ذراعه الضعيفة بصعوبة بالغة، ليطوق عنقها ويضمها الى صدره الذى برزت عظامه. أكدت له انه غير مسؤول بتاتا عن مغادرتها شامبورتن فتطلع نحو وجهها بعينين ضعيفتين مرهقتين وقال لها بصوت هامس مرتجف:

- انت الآن هنا وستبقين مع بيار. لا أفهم هذه الزيجات العصرية، ولا أوافق عليها. فمن أقل واجبات الزوجين البقاء معا.

توقف لحظة لالتقاط أنفاسه مجددا، ثم مضى الى القول:

- لدى رغبة قوية فى سماعك تقولين انك ستبقين معه ولن تتركيه أبدا.

تململت ايلاين فى مكانها ونظرت الى مارجريت، الموجودة على الجانب الآخر من السرير. شاهدت فى عينيها نظرات الاستغاثة والمناشدة، وقرأت فى ملامح وجهها نداء توسل يطالبها بالقبول. قالت لخالها بصوت منخفض:

- سأبقى مع بيار، يا خالى، ولن أهرب مرة ثانية.

أحست فورا بالوقع الطيب لكلماتها القليلة، اذ لمعت عيناه المرهقتان ببريق السرور والارتياح وضغط على يدها بما تبقى له من عزم وقوة ... ثم بدأ يحدثها بصوته المتقطع المتهدج عن بعض ذكرياته الجميلة. وفيما كانت تصغى اليه بتأثر شديد، لاحظت اختفاء بيار من الغرفة ووقوف مارجريت امام احدى النافذتين. ولم تمض الا فترة قصيرة حتى شعر ارمون بالارهاق الشديد نتيجة الانفعال العاطفى والاسترسال فى الحديث عن الماضى. أغمض عينيه لبضع لحظات على أمل العودة الى الكلام، ولكن المرض والتقدم فى السن جعلاه يغط على الفور فى نوم عميق سحبت ايلاين يدها من يده

برفق وهدوء وغادرت الغرفة مع مارجريت، تاركتين الرجل العجوز برعاية ممرضة تسهر على راحته طوال الليل.

انضم اليهما بيار فى قاعة الطعام، حيث تناولوا طبقا شهيا من أجود المأكولات المحلية... قدم لهم جاك على أثره بعض الحلويات التى تستهوى ايلاين بدرجة كبيرة. وعندما انتهى الجميع من تناول طعامهم، اعتذرت مارجريت من ابنها وزوجته بحجة انها متعبة جدا وعليها الذهاب الى فراشها... لتكون قريبة من ارمون. ثم قالت لايلاين:

- اخشى ان يؤدى سروره وتأثره الكبير بحضورك الى عدم تمكنه هذه الليلة من النوم بهدوء و ارتياح.

لاحظت الشابة البريطانية مدى تأثير التعب والقلق على وجه مارجريت وعينيها، وهو ما لم تلاحظه قط قبل بضعة أشهر. قالت لها بصدق واخلاص:

- هل يمكننى المساعدة بشىء؟

ضغطت بحنان على كتفها، وقالت:

- لا، ليس هذه الليلة يا حبيبتى. انت ايضا بحاجة الى الراحة بعد هذا اليوم الطويل المرهق. والآن، تصبحان على خير. سيقدم لكما جاك القهوة فى غرفة المكتبة.

تذكرت ايلاين فى تلك اللحظة انه يتحتم عليها الاتصال بمديرها جيرالد مورتون، لتبلغه عن عزمها على اطالة مدة اجازتها بعض الوقت. اوه، كم حثها فى الأسابيع الماضية على وضع حد لزواجها! كم من مرة حاول اقناعها بالطلاق من بيار، فيما اذا رغبت يوما... فى الزواج من غيره! هل يحبها جيرالد ويريد الزواج منها؟ سألت بيار بهدوء:

- هل يمكننى استخدام الهاتف؟

- طبعا، طبعا.

- و... وعدت شخصا ما فى لندن... بالاتصال هذه الليلة... للابلاغ عن وصولى.

- شخص ما؟ عمك تشارلز ام زوجته جينى؟ هل تحفظين رقمهما؟ اذا كنت لا تعرفين الرقم غيبا، فهو مسجل فى الدليل الصغير هناك قرب الهاتف.

- لا، لا يمكنها التحدث مع جيرالد امام بيار. سألته بشىء من التردد:

- هل يوجد جهاز آخر أستطيع استخدامه؟

- واحد فى غرفة والدتى، وآخر فى المطبخ. ولكن، ارجوك الا تخجلى ابدا من استخدام الجهاز الموجود هنا.

صبت لنفسها فنجانا ثانيا من القهوة اللذيذة، وهى تتمنى لو انه يلاحظ رغبتها فى اجراء المكالمة الهاتفية على انفراد. سألته عما اذا كان يريد فنجانا آخر أم لا، فأغلق كتابه ووضعه جانبا ثم قال:

- لا، شكرا. اوه، كم يذكرنى وجودنا معا الآن على هذ الشكل بالأيام السعيدة الماضية!

لم تعلق على كلامه بأى شىء وظلت صامتة، ففتح الكتاب مجددا وعاد الى القراءة. رفع رأسه بعد بضع دقائق، وسألها بأسلوب بارد ازعجها وأثار غضبها:

- هل أجريت مكالمتك؟

- لا، وأنت تعرف ذلك! كيف يمكننى اجراء أى مكالمة، وأنت هنا تستمع الى كل كلمة أقولها؟

- أوه! اذن، فالمكالمة ليست مع تشارلز او جينى بل مع... صديق! هل هو

رجل تقيمين معه علاقة عاطفية مع انك لا تزالين زوجة رجل آخر؟

شعرت بوخز الاهانة القاسية التى جرحت كرامتها فهبت واقفة وصرخت به:

- انا... أنا لست مثلك أبدا، يا بيار دوروشيه! أنا لا أقيم علاقات عاطفية مع اشخاص آخرين طالما اننى متزوجة... ولو من رجل لا أحبه! وبما انك لست مهذبا بما فيه الكفاية لتغادر الغرفة اثناء الاتصال الذى سأجريه، فسوف استعيض عن المكالمة برسالة اكتبها هذه الليلة. تصبح على خير!

خرجت من غرفة المكتبة وأغلقت الباب وراءها بكامل قوتها، بحيث ظلت تسمع لبضع لحظات صداه يتردد فى الممر الذى قطعته بسرعة لتصعد الى غرفة النوم. اخرجت كل ملابسه وأحذيته من الخزانة، وبدأت فى نقلها الى... غرفة الحضانة. فتحت باب الحجرة التى اختارها بيار لنفسه، فدهشت لصغر حجم السرير. كيف يمكن لرجل طويل القامة مثله، ان ينام على سرير أطفال كهذا؟ تضايقت قليلا، ولكن همها الأول هو الابتعاد عنه قدر الامكان... وخاصة اثناء الليل.

قامت باربع رحلات متتالية، فنقلت كافة ثيابه وأمتعته الى الغرفة الصغيرة، ثم جلست فى حجرتها لتكتب رسالة الى جيرالد. ولكنها توقفت عن الكتابة بعد عشر دقائق، لأنها لا تزال غاضبة بسبب ما فعله بيار معها. كيف يمكنها اعداد جمل عادية هادئة لتوضيح موقفها الحالى، والأسباب التى تضطرها لاطالة أمد زيارتها؟ دب النعاس فى عينيها، فخلعت ثيابها فى كسل وأطفأت النور... ونامت بصورة شبه فورية...

٣ ـ اندفاع وتسرع

عندما استيقظت ايلاين فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى، تأكد لها قبل فتح عينيها انها لا تزال موجودة فى شامبورتن... وفى جناح البرج بالذات... وذلك فور سماعها هديل الحمام.

خدعها عقلها فى تلك اللحظة الوجيزة من السرور والابتهاج، فشعرت وكأن فترة انفصالها عن بيار لمدة تسعة أشهر كاملة لم تحدث اطلاقا... وأقنعت نفسها بأنها متزوجة منذ اربعة اشهر فقط ولا تزال غارقة فى الحب حتى أذنيها. ابتسمت بارتياح وسعادة، ثم حركت رجليها ومدت ذراعها لتطوق... حبيبها!

انتشلتها ملامسة الفراغ البارد من أحلام اليقظة، وأعادتها الى عالم الواقعية... إلى الألم والمرارة. فتحت عينيها وتطلعت نحو الجزء الآخر من الوسادة، فأدركت انها موجودة وحدها... وكانت وحدها طوال الليل! خيبة الأمل العنيفة التى عصفت بها. كيف يمكنها تحمل هذا العذاب أياما أو ربما اسابيع؟ ترى هل ستكون قادرة على السكن مع بيار تحت سقف واحد، وتظل متحفظة عاطفيا تجاهه؟ كيف ستستيقظ فى هذا السرير كل صباح، دون أن تتذكر عشرات المرات الأخرى التى كانت تجده فيها مستلقيا قربها بدفء وارتياح... وهى سعيدة بالسجن الذى بنته بحبها له؟

لماذا كل هذا الاهتمام والمبالاة به؟ لماذا تشعر كلما رأته أو سمعته، بالحزن والأسى؟ ألأن الحب الذى أقسما على ابقائه حيا ومشتعلا حتى يفرق الموت بينهما، لم يكن على ما يبدو موجودا منذ البداية؟

اذا احبها فعلا، فمن المؤكد انه لم يكن ليخونها كما تدعى سولانج. لو انه يحبها حقا، لما كان امضى الليل مع سولانج فى شقتها مرات عديدة... كلما كان مفترضا به القيام برحلة عمل الى المنطقة التى تعيش فيها!

برزت صورة سولانج فجأة على شاشة خيالها وتفكيرها، فشاهدت ايلاين تلك المرأة الطويلة القامة النحيلة الجسم تنظر اليها بعينيها السوداوين الكبيرتين... وتهز رأسها. سولانج فنانة فى الثالثة والثلاثين من عمرها، وتعرف بيار منذ سن المراهقة. قالت لها مرة انها كانت عائدة من احدى جزر البحر الكاريبى حيث امضت سنة كاملة فى اعداد اللوحات الفنية، حين قررت زيارة شامبورتن لرؤية... حبيبها القديم.

وتذكرت ايلاين ان تلك الزيارة تمت بعد مرور اسبوع واحد على زواجهما، وقد بدا ان سولانج فوجئت بالأمر. اعترفت لها آنذاك بانها لا تميل كثيرا الى فكرة الزواج، وتفضل عليها البقاء حرة طليقة... مضيفة بغنج ودلال:

- لماذا يزعج أى انسان نفسه بالزواج، ان لم يكن ذلك بهدف الأولاد... أو تحقيق مكاسب مادية؟

تضايقت ايلاين بشكل كبير فى ذلك الوقت، ولكنها نسيت سولانج وأفكارها الغريبة بمجرد مرور بضعة ايام على مغادرتها شامبورتن. كانت سعيدة جدا مع زوجها وحبيبها، بحيث انها لم تهتم اطلاقا بما حدث معه قبل زواجهما... ولم يخطر ببالها ابدا انه يستغل المناسبات القليلة خارج

شامبورتن لأهداف لا علاقة لها بعمله.

ذهبت ايلاين فى أحد ايام الخريف الباردة الى بلدة انجولام، لشراء بعض الحاجيات المنزلية الضرورية. انهمر المطر فجأة، فدخلت متحف البلدة الذى كان فى الماضى قصر الأسقف... والتقت سولانج. حيتها الفنانة الفرنسية بمودة ظاهرة، وعرضت عليها القيام بدور الدليل لتشرح لها عن المنحوتات الأفريقية التى كانت معروضة هناك. وبعد الجولة القصيرة داخل المتحف، دعتها لزيارة محترفها القريب... فلبت ايلاين الدعوة على الفور. تكررت زيارات المحترف الجميل مرات عديدة خلال الأسابيع الثلاثة التالية...

تململت ايلاين فى سريرها وهى تتذكر الزيارات، وتمنت لو انها لم تكن بريئة وغبية الى تلك الدرجة. فلو لم تتكرر المقابلات، التى أدت الأحاديث خلالها إلى اثارة شكوكها بالنسبة لبيار، لما كانت الأمور قد ساءت على ذلك النحو وأرغمتها على التخلى عن زوجها والرحيل. فبغض النظر عن الكيفية التى كانت تبدأ فيها احاديثهما العامة فى ذلك المحترف اللعين، الا انها كانت تتحول بصفة دائمة الى بيار... الى مدى تعلق سولانج به أثناء فترتى المراهقة والشباب... الى الاجازات الاسبوعية المتعددة التى كانا يمضيانها معا... والى التلميحات الواضحة طوال الوقت بأن العلاقة بينهما لم تكن أبدا بريئة او سطحية. وتذكرت ايلاين بانزعاج بالغ حوارا معينا، اثار اعصابها وقض مضجعها. قالت سولانج، وهى تهز كتفيها:

- اوه، انا اعرف تماما اننى لم اكن الفتاة الوحيدة فى حياته... ولكنه كان يعود إلى دائما. وحتى مع زواجه الآن... وضعت يدها فجأة على فمها، ثم اضافت بصوت منخفض:

- رباه، ماذا اقول؟ انى انسى باستمرار.

- ماذا تنسين، يا سولانج؟

- انسى انك زوجته. ايلاين انك صغيرة وبريئة جدا بحيث أجد صعوبة فى تخيلك مع رجل قاس ومحنك مثل بيار. يمكننى تصورك بسهولة اكبر مع شاب طيب طرى العود مثلك... شاب بريطانى اشقر الشعر ازرق العينين يمسك يدك ويأخذك الى حفلة راقصة ويضحك بفرح وزهو كلما طوقك بذراعيه. اوه، ايلاين، لماذا تزوجت بيار؟

- لأننى احبه ، يا عزيزتى.

لمعت عينا سولانج ببريق غريب اشبه بالشفقة الهازئة، أو التأثر الساخر، وقالت:

- طبعا، طبعا. انت شابة رومنطيقية تؤمنين بالحب، وتعتقدين انه تزوجك لسبب مماثل. ولكن زواج أبناء العائلات الميسورة أو الثرية كان، حتى نصف قرن مضى، يتم بموجب ترتيبات اجتماعية أو مادية معينة. لم يكن للحب أى مكان أو نصيب داخل هذه الترتيبات، الا اذا لعب الحظ دورا كبيرا فى حياة الزوجين وتعلما فيما بعد كيف يحبان بعضهما بصدق واخلاص. اما فى ايامنا هذه، فاحتمالات زواج العاشقين من بعضهما متاحة بشكل أوسع وأفضل. ولكن بيار... ورث الكثير عن امه مارجريت دوروشيه.

- لا افهم ماذا تقصدين بهذا الكلام؟

- حالت الظروف الاجتماعية والعقلية الطبقية المتحجرة دون زواج مارجريت من ارمون سان فيران، فأقدمت على افضل خطوة بديلة. تزوجت من جان دوروشيه، الشاب القوى الذكى الطموح الذى يعمل فى خدمة سيد

القصر. كان جميع الناس يعرفون ان مارجريت لم تتزوج جان بدافع حبها له، بل لتتواجد قرب ارمون بصورة دائمة وتصبح قادرة على التحكم بالقصر... وبمن فيه. وعندما مات زوجها، تزوجت ابن الخامسة والستين وحققت حلمها القديم بحمل اسم سان فيران.

- اذا اقدمت مارجريت على الزواج بدافع المصلحة ولتحقيق مكاسب اجتماعية أو مادية، فهذا لا يعنى ان بيار تزوجنى أنا بمثل تلك الدوافع. لم يعد الناس هكذا فى عصرنا الحالى، يا سولانج.

- يا لك من فتاة ساذجة! لا شك ان بيار وجد سهولة فائقة فى اغرائك واغوائك. استغل سحره وجاذبيته، وخبرته الطويلة فى الاثارة، فاقتنعت سريعا بانه يحبك. اختلط عليك الأمر، كمعظم الصغيرات السخيفات مثلك، فلم تعرفى الفرق بين الحب الحقيقى والنشوة الآنية.

تذكرت ايلاين مدى الصدمة التى اصابتها لدى سماعها تلك الكلمات الجارحة فى صراحتها، وكيف تحاملت على نفسها للاحتجاج مرة اخرى بالقول:

- ما هى المكاسب فى نظرك التى يمكنه تحقيقها من زواجه منى؟ فأنا فتاة عادية لا تملك جاها أو ثروة.

- هذا صحيح الآن، ولكن المستقبل القريب قد يحمل لك الكثير. فأنت، بالنسبة لأرمون، الانسان الوحيد الذى يحق له وراثة شامبورتن بعد وفاته ... نظرا لروابط الدم. فمن غير المستبعد ابدا ان تكون مارجريت قد احست بهذا الأمر، وشجعت ابنها على الزواج منك. ولا شك كثيرا انها اقنعت ارمون بذلك، على اساس ان بيار هو ابن زوجته والمرشح الأمثل لمشاركة حفيدة شقيقته فى وراثة شامبورتن ... وبخاصة لأن الفتاة التى يعتبرها كابنته تحب بيار!

- اوه، يا له من كلام سخيف وتافه! من أين جاءتك هذه الفكرة الجهنمية المذهلة؟

- من أين يا عزيزتي؟! من بيار ذاته، من زوجك... وحبيبك.

هل تظنين ان الزواج كان سيتم بينكما، لو لم يوافق ارمون على شرط بيار بتغيير وصيته وجعله الوريث المشارك؟

- لا،لا اصدقك ابدا! لم يتزوجني بيار الا لأنه يحبني. انا متأكدة من ذلك تماما.

- حقا؟ اسأليه اذن عن سبب حضوره الى هنا. اسأليه عن الليالي العديدة التي امضاها معي في هذه الشقة بالذات، منذ عودتي الى فرنسا. اسأليه لماذا كان هنا الليلة الماضية، ولماذا ترك قفازيه وقداحته. هل تصرين بعد الآن، على الاعتقاد بأنه تزوجك بدافع الحب؟ انا اعرف انه لم يفعل ذلك اطلاقا، فهو انسان هادىء عملي يخطط للمستقبل البعيد بحكمة وصبر وذكاء... مثل امه. كان يرغب في زواج ملائم يحسن اوضاعه الاجتماعية والمالية، ووجد فيك الضحية المناسبة. أما بالنسبة للحب، فهو يحبني انا. لقد احبني دائما، وسيظل يحبني حتى...

لم تنتظر ايلاين سماع بقية تلك الجملة التي قلبت حياتها رأسا على عقب، اذ انها خرجت بسرعة من المحترف الواقع على سطح بناية عالية ونزلت راكضة على درجاتها المئة كشخص فقد عقله... وليس قلبه فقط.

رمت بنفسها وراء مقود السيارة، التي اخذتها من خالها ارمون للحضور الى هذه البلدة، وحاولت جاهدة السيطرة على ارتجاف جسمها الناجم عن تلك الصدمة القوية التي انزلتها بها سولانج. ولكن وقع المصيبة كان كبيرا

جدا عليها، بحيث انها لم تنتبه الى ما يجري حولها الا بعد حلول الظلام.

غادرت البلدة المشؤومة، وهي تشعر بوحدة رهيبة وعذاب لا يقاوم. وفي الطريق احست بانها غير قادرة على العودة الى شامبورتن. توجهت الى بواتيه، فوصلتها منهكة القوى ومرهقة الأعصاب. اخذت غرفة في احد الفنادق الصغيرة، ولكنها ظلت مستيقظة طوال الليل... لا تعرف كيف تحد من ألمها وغيظها.

قادت سيارة خالها صباح اليوم التالي الى اقرب محطة للوقود، ثم استقلت اول قطار متجه الى باريس. ومن العاصمة البعيدة، التي لا يمكن لأحد في منطقة شامبورتن أو المقاطعات المجاورة الوصول اليها بسرعة، اتصلت بالقصر وطلبت من جاك ابلاغ بيار لدى عودته بانها ذاهبة الى لندن لزيارة ابن عم والدها... وسوف تكتب له من هناك.

قررت ايلاين لدى وصولها الى العاصمة البريطانية ألا تذهب مباشرة الى منزل عمها في آشلي، بل أمضت بضعة ايام لدى صديقة تعرفها منذ ايام الدراسة. كانت تود البقاء منعزلة في هذه الشقة الصغيرة الى اجل غير مسمى، ولكن وضعها النفسي أقلق صديقتها الى درجة كبيرة، فاتصلت بتشارلز وجيني وأبلغتهما عما حدث. ونتيجة لذلك، حضرت جيني بعد ظهر اليوم الثالث للاتصال الهاتفي وأخذت ايلاين الى آشلي.

كانا طيبين وعطوفين جدا معها، ولم يعلقا بشيء على قولها انها تركت بيار ولن تعود اليه ابدا. وظفها تشارلز في مكاتب الشركة، وفي الدائرة التي يرأسها جيرالد مورتون. كتبت رسالة لبيار أبلغته فيها انها قد ادركت الآن الخطأ الذي ارتكبته بقبولها الزواج منه بمثل تلك السرعة، وانها بحاجة الى

بعض الوقت لتفكر بموضوع علاقتهما. جاءها الرد على تلك الرسالة من خالها ارمون، الذى حثها على العودة بسرعة الى زوجها. اما بيار، فلم يكتب لها الا بعد مرور اكثر من ثلاثة اشهر على عودتها الى لندن. قال لها بايجاز:

" اعتبر ان هذه الفترة كافية للتفكير والتحليل. ارجو اعلامى بموعد عودتك ".

اعادت الغطرسة الباردة فتح جروحها. لو انه اتى الى لندن وطالبها بالعودة اليه... لو انه قال لها فى رسالته تلك انه يحبها ويريدها، لكانت عادت دون أى تردد. ولكن سياسة اللامبالاة وعدم الاكتراث ظلت مهيمنة على تصرفاته وردود فعله، فاقنعتها برودته بأنه فعلا لم يتزوجها بدافع الحب والهيام. بعثت له برسالة قالت فيها انها قررت البقاء فى لندن، وانها تأمل فى توصلهما قريبا الى اعداد الترتيبات اللازمة لطلاقهما. لم يكتب لها بعد ذلك أى رسالة على الاطلاق.

تقلبت فى سريرها اكثر من مرة، ثم نامت على ظهرها وراحت تحدق فى السقف. يا لسخرية الأقدار! ها هى الآن فى المكان الذى اقسمت من قبل على الا تأتى اليه ابدا، والجميع يظنون انها عادت الى... زوجها. لا يعرف الحقيقة المرة الا شخصان... هى وبيار. لقد اوقعت نفسها فى الرمال المتحركة للادعاء، الخطر، ووضعت حاضرها ومستقبلها على كف عفريت. ولكن...

سمعت طرقة خفيفة على الباب، ثم رأته يفتح بهدوء ليطل منه وجه بيار. هبت جالسة فى سريرها بسرعة وتحفز، فابتسم وسألها بنعومة:

- هل باستطاعتى الدخول؟

- نعم.

دخل وأغلق الباب وراءه، فتمنت لو انها لم تسرع فى الجلوس. وقع الغطاء من يدها وكشف عنها امام عينيه، اللتين كانتا تتفحصانها بدقة وروية. حاولت الا تظهر انفعالها أو خجلها، فرفعت ركبتيها وضمتهما بذراعيها ثم سألته ببرودة:

- ماذا تريد؟

- حذاء العمل.

اقترب من السرير ومضى الى القول:

- لابد لى من أن أشكرك على نقل امتعتى الى الغرفة الأخرى. ولكنك نسيت، لسوء الحظ الذى احتاجه اليوم . ارجو تقبل اعتذارى على دخولى فى هذا الوقت المبكر، فأنا مضطر لأخذه.

اذهلها تهذيبه الفائق الى درجة الصدمة، فارتعش جسمها وأحست بالبرد على الرغم من دفء الغرفة. قالت متمتمة:

- طبعا.

فتح بيار الخزانة وأخرج الحذاء، ثم... ويا لخوفها... جلس قربها على حافة السرير. حاولت التسلل بهدوء وعلى نحو طبيعى الى الجانب الآخر من السرير، ولكنها لاحظت انه يجلس على جزء من قميص النوم الذى ترتديه. وضع قدمه فى الحذاء، وسألها بتلك اللهجة المهذبة ذاتها:

- هل نمت جيدا؟

ردت عليه وهى تشعر بتوتر شديد فى اعصابها، نتيجة لاقترابه منها بهذا الشكل المثير:

- نعم، شكرا . وانت؟

ادخل القدم الأخرى، وقال:

- لقد نمت بارتياح بالغ.

تأملت وجهه الأسمر المتوتر، الذى تبدو عليه علامات التعب، فأحست بتأنيب الضمير لإصرارها على الانفراد بهذا السرير الكبير وإرغامه على النوم فى حجرة مخصصة للاطفال. قالت له بعفوية واضحة:

- انا آسفة. من المؤكد ان ذلك السرير ليس مريحا اطلاقا... فهو ضيق وصغير جدا.

- ربما.

وقف بيار، فأحست ايلاين بكثير من الراحة النفسية. سار نحو النافذة وفتحها على مصراعيها، فتدفقت أشعة الشمس لتنير الغرفة شبه المظلمة. ثم اضاف قائلا بهدوء:

- لم أنم فيه، وعليه فلست قادرا على اعطاء أى رأى أكيد عنه.

سألته بسرعة، ودون تردد:

- اين نمت اذن؟

كان بيار لا يزال واقفا قرب النافذة، يتطلع الى شىء ما فى باحة القصر، فبدت احدى وجنتيه وكأنها مغطاة بقناع ذهبى. استدار نحوها فى هدوء وهو يبتسم، فتحطم ذلك القناع الجميل لأن الوجه لم يعد معرضا لأشعة الشمس الذهبية. قال لها باستفزاز رقيق ناعم، أغرق تفكيرها فى دوامة مزعجة من التساؤلات والافتراضات:

- عليك انت معرفة المكان بنفسك.

علقت على كلامه بشىء من البرودة، والتظاهر بعدم الاهتمام:

- قد يكون من الأفضل أن أنام انا فى الحجرة الثانية.

تأملها مليا، وقال:

- هذا حل واحد للمشكلة، ولكننى لا اعتبره أفضل الحلول. ابتعد عن النافذة، وبدأ يتجه نحو باب الغرفة. اصطدمت قدمه برجل الطاولة التى كانت ايلاين تكتب عليها فى الليلة السابقة، فوقعت رسالتها الى جيرالد على الأرض. انحنى فى حركة آلية لالتقاطها واعادتها الى مكانها. وما أن لمح الكلمات الأولى، حتى رفع حاجبيه وبدأ يقرأ بصوت عال... مشددا على لكنته الفرنسية:

" عزيزى جيرالد، وصلت اليوم الى شامبورتن دون أى عناء يذكر. قابلت خالى، فتمنى البقاء قريبة منه لبعض الوقت ".

رمت ايلاين الغطاء عنها بسرعة وقفزت نحو بيار، وهى تمد يدها لاستعادة الرسالة وتقول بحدة بالغة:

- كيف تجرؤ على قراءة رسالتى؟!

لم تتمكن من أخذ الورقة الصغيرة من يده، لأنه رفعها عاليا فوق رأسه وراح يلوح بها فى حركة استفزازية. وبسبب اندفاعها بقوة نحوه وفشلها فى الامساك بيده، لم تتمكن من السيطرة على سرعة تحركها... فهوت عليه. مد ذراعه الأخرى كلمح البصر وطوق جسمها، فوجدت نفسها مرة ثانية قريبة منه. حاولت التخلص من قبضته القوية الشريرة، صارخة بوجهه:

- اتركنى! اتركنى! اعطنى رسالتى!

قال لها بهدوء زاد من عذابها وألمها:

- لن اعطيك اياها، الا عندما أعرف من هو جيرالد هذا.

شهقت بانفعال، قائلة:

- بيار، انك تؤلمنى!

- لا. انت مخطئة كثيرا. اذا توقفت عن الحركة أولا، فلن تشعرى بأى أوجاع أو آلام. ستشعرين دائما بالأذى والضرر، نتيجة لطيشك وعنف اندفاعك. قليلا من الهدوء، ايتها الحبيبة، وسيكون كل شىء فى أفضل حال.

ارغمتها القوة الواضحة فى جملته الأخيرة، وقبضته الضاغطة عليها بطريقة لا تعرف الشفقة على التوقف عن محاولاتها الفاشلة... فيما كان صدرها يعلو ويهبط بشكل انفعالى متوتر، وهى تحاول التقاط انفاسها. سألها بلهجة حازمة وصارمة:

- هل هو حبيبك؟

انتفض رأسها بعصبية بالغة، ونظرت اليه متحدية متمردة ثم قالت:

- لست مضطرة لابلاغك بأى شىء على الاطلاق.

- بلى، إنه من صميم حقى الاطلاع على مثل هذه الامور.

ضحكت بحنق واستهزاء، وقالت:

- اوه، انت وحقوقك! انا ايضا لدى حقوق! أليس من حقى اذن معرفة المكان الذى نمت فيه ليلة امس؟

- نمت على الأريكة الموجودة فى غرفة المكتبة.

أربكها جوابه الرصين، فأسندت ظهرها الى ذراعه القوية وحدقت به...

لتدرس عينيه وتحاول قراءة ما يجول فيهما ووراءهما.

بادلها تلك النظرات الفاحصة بالمثل، فتحول نظرها بهدوء الى شفتيه الجذابتين الباسمتين بسخرية... وقالت بلهجة جافة جدا:

- لكنى لا اصدقك.

نظر اليها شزرا، وقال لها بصوت يرتجف حنقا وسخطا:

- حسنا، سأحاول مرة ثانية. نمت فى سرير امرأة اخرى... ستصدقين هذا الأمر بالتأكيد، ودون تردد أليس كذلك؟!

ضغط على خصرها قليلا، ومضى الى القول:

- حدثينى الآن عن المدعو جيرالد. هل هو السبب فى مطالبتك بالطلاق؟

وضعت ايلاين يديها على صدره محاولة دفعه عنها، ولكنها فوجئت بذراعه الأخرى التى كانت حتى لحظات خلت فوق رأسه... تنزل بسرعة وتنضم الى اختها فى عملية التطويق المحكمة. حاولت تجنب الموضوع بقولها:

- أوه، لا يمكننى بحث أى مسألة معك، وأنت تعصرنى على هذا النحو.

- وكيف تريدننى أن اعصرك اذن؟

- لا... أعنى... اننى...

لم ينفع احتجاجها بشىء، لقد تذكرت أيام السعادة والهناء. اشتعلت الرغبات المكبوتة فى داخلها، وثارت احاسيسها و مشاعرها ثورة عارمة طالبة المزيد. نظرت اليه بعينين شبه مغمضتين، فرأت عينيه تحومان فوق وجهها كنسرين على وشك الانقضاض. تأوهت وتمنت لو انه يحملها الآن بعيدا عن

www.elromancia.com

العالم. وما هى الا لحظة وجيزة، حتى أحست به يعانقها... [illegible]ابت بين يديه، وشعرت بالدماء الحارة تغلى فى عروقها. رفعت ذراعيها لتطوق عنقه ولكن الباب فتح فجأة وسمعت مارى تقول بصوت يغلب عليه التلعثم والتردد... والخوف:

- اوه، عفوا، سيدى، سيدتى!

ابتعد بيار عن ايلاين والتفتا معا نحو الخادمة الشابة التى كادت الدماء تتدفق من وجنتيها حياء وخجلا. سألها بيار بصوت رقيق ناعم، كيلا يزيد من اضطرابها وخوفها:

- ماذا تريدين يا مارى؟

كانت الفتاة ترتجف بقوة نتيجة الصدمة التى حلت بها، فلم يصدر عنها سوى أصوات مبهمة غير مفهومة. ثم خرجت بسرعة، لتعود بعد لحظة حاملة صينية عليها سلة من الخبز الطازج وصحن من الحلويات وابريق قهوة. وضعتها على الطاولة، وقالت:

- هذه... هذه... للسيدة.

- شكرا. شكرا جزيلا، يا مارى.

خرجت الفتاة دون تردد، فالتفت بيار نحو ايلاين وقال:

- اوه! الفطور فى الغرفة! يبدو ان احدا، فى هذا البيت يحاول اقناعك بالبقاء.

خرج من الغرفة و أغلق الباب وراءه، دون أن يضيف شيئا أو ينتظر منها جوابا. صبت فنجانا من القهوة الشهية الطعم والرائحة، وهى لا تزال تفكر

بجملته وتحاول تحليلها. لا شك فى ان مارجريت هى التى طلبت من مارى احضار الفطور الى غرفة النوم، فى محاولة لتدليل كنتها كما كانت تفعل قبل سنوات عديدة... عندما لم تكن ايلاين آنذاك لا تزال طفلة صغيرة، وحفيدة شقيقة زوجها. رفعت فنجان القهوة الى شفتيها، فشاهدت قربه وردة حمراء ذكية الرائحة رائعة الجمال... كعنوان بارز للترحيب الحار.

ولكن بيار لا يريد لها البقاء فى شامبورتن، وقد بدأ هذا الأمر يتأكد لها اكثر فأكثر وساعة بعد ساعة. انه يعذبها ويمارس معها شتى الأساليب السلبية القاسية، لإرغامها على مغادرة القصر. تبا لها ولضعفها امامه! كيف سمحت لنفسها بالتصرف معه بتلك الطريقة الاستسلامية الوضيعة. لابد انه يضحك عليها الآن ! ألم تقل له قبل أقل من اربع وعشرين ساعة فقط، انه لا يمكنها النوم فى سرير واحد... أو حتى فى غرفة واحدة... مع شخص لا تحبه؟ فماذا فعلت قبل دقائق؟ تحول جسمها، بمجرد تطويقها بذراعيه وضمها اليه بقوة، الى كتلة من نار... لو لم تدخل مارى فى تلك اللحظة، لكانت ... لا، لن تسمح لنفسها حتى بتخيل ذلك أبدا! يتحتم عليها تجنب تكرار مثل هذه الأمور، والا فانها...

تناولت فطورها ثم ارتدت ثيابا صيفية رقيقة، ولكنها محتشمة كالعادة، وتوجهت الى المطبخ لتعيد الصينية. شاهدت مارجريت هناك، فألقت عليها تحية الصباح. ابتسمت السيدة الهادئة، ورحبت بها قائلة:

- أسعدت صباحا، يا ايلاين. كيف حالك اليوم؟

- لا بأس.

لاحظت ايلاين آثار التعب والارهاق والقلق على وجه مارجريت، فسألتها:

- كيف حال الخال ارمون هذا الصباح؟ هل نام جيدا؟

- لا! كان أرقا ومتململا جدا، وأصر على التحدث مع بيار فى وقت متأخر من الليل. من حسن الحظ، كان بيار لا يزال مستيقظا. أوه، انا آسفة ايتها الحبيبة لأنك تضايقت الى هذه الدرجة فى الليلة الأولى من عودتك الى البيت. مسكين بيار ايضا... فقد ظل جالسا قرب ارمون حتى الرابعة من صباح هذا اليوم.

- انا لم اكن متضايقة، ولكننى لم اعرف انه بقى مع خالى معظم الليل. لم يقل لى شيئا من هذا القبيل.

- وعليه فانك تفترضين انه ليس من النوع القادر على القيام بمثل هذه الأعمال الرقيقة الكريمة. أليس كذلك؟ لا، يا عزيزتى، فبيار رجل طيب جدا كما كان والده من قبله... وأنا اتمنى له دائما السعادة.

- أليس بيار سعيدا؟

- لا أعتقد ذلك. مع انه لا يتحدث ابدا عن هذه المواضيع. فهو ليس من النوع المتذمر المتباكى، أو الذى يحب اطلاع القاصى والدانى على حقيقة مشاعره وعواطفه. ولكنى اشعر احيانا بانه متشائم كثيرا ويحس بالأسى والكرب، وأميل بالتالى الى القاء اللوم عليك وتحميلك مسؤولية هذه التطورات السلبية فى حياته.

- انا؟... انا؟

- نعم ! فأنت لم تكونى زوجة طيبة معه إلى حد بعيد، واتساءل احيانا عما اذا كان يشعر بالندم لزواجه منك.

أخذ جسم ايلاين يرتجف كورقة خريفية فى يوم عاصف، فيما كان

الغضب الساخط فى داخلها يكاد يحرق اعصابها ومشاعرها. ثمة سبب واحد فقط لاحتمال ندمه، وهو رغبته فى الزواج من سولانج. هل تخبر امه الآن عن علاقته مع تلك المرأة، وعما قالته سولانج عن مارجريت وابنها؟ هل تقول لها انها كانت مستعدة تماما للطلاق منه فورا ودون تردد، لأنه ليس الزوج الصالح المثالى؟

تذكرت انه يفترض بها التظاهر بعودة المياه مع بيار الى مجاريها الطبيعية، وأدركت فجأة أن مارجريت تدلى فقط برأيها التقليدى فيما يتعلق بالزواج. فمهمة الزوجة، حسب اعتقادها ونظريتها، اسعاد زوجها وانجاب الأطفال والاهتمام بعائلتها. لن تتمكن هذه السيدة المسنة، ولو بعد مئة عام، من تفهم نقطة بالغة الأهمية... وهى ان الزواج لا يعنى بالضرورة ارغام المرأة على التضحية بقلبها وكرامتها وكافة حقوقها. لن تجادل مارجريت وتجرح شعورها! قالت لها وهى تشير الى الصينية والوردة:

- تمتعت كثيرا بهذا الفطور الرائع، وبلفتة الترحيب الكريمة.

- انا ارحب بك فى كل وقت، ايتها العزيزة، ولكننى لم أقل لمارى اى شىء عن اضافة وردة حمراء. اتركى الصينية فى مكانها، فسوف تهتم بها مارى فى وقت لاحق. اخبرينى الآن... هل تحبين اليوم القيام بأمور معينة؟

لم تسمعها ايلاين، بسبب جعل اهتمامها بكامله على تلك الوردة الجميلة. من وضعها أو امر بوضعها، يا ترى؟ بيار؟ لا، لا يمكن! اخذت الوردة ووضعتها فى صدرها، ثم أدارت وجهها نحو الباب وهمت بالخروج. كررت مارجريت سؤالها بصوت أعلى، يغلب عليه طابع المرح والارتياح، فأفاقت ايلاين من ذهولها وقالت:

- اريد مساعدتك. هل يمكننى الجلوس مع الخال ارمون لمعاونته والاهتمام به؟

- ربما فى وقت لاحق. على أى حال، فهو سيطلب مقابلتك فى وقت ما قبل الظهر. لماذا لا تقومين الآن بنزهة فى الحديقة، طالما ان الطقس يسمح بذلك؟ ستشتد الحرارة خلال فترة قصيرة.

سارت ايلاين فى الحديقة بعض الوقت، ثم توجهت الى النهر على طريق ترابية ضيقة تحيط بها وتظللها كروم العنب وأشجار السرو. وفى نهاية الممر الطويل، شاهدت الزورقين شبه المسطحين اللذين كانا يستخدمان لنقل الانتاج الزراعى والحيوانى الى اقرب الأسواق التجارية. غمر السرور ايلاين، لأنها تذكرت الرحلات النهرية التى كانت تقوم بها أثناء كل فصل صيف كانت تمضيه فى شامبورتن. نزلت الى احدهما وفكت الحبل الذى يربطه بالرصيف الخشبى القديم، فانساب الزورق بهدوء مع مياه النهر. انحنت لالتقاط المجداف من المكان الذى يوجد فيه عادة، فلم تجده! اصيبت بدهشة قوية، تحولت خلال لحظات الى تأنيب ذاتى بسبب تسرعها واهمالها. وما أن استفاقت من ذهولها وصدمتها، حتى تبين لها انها لم تعد قادرة على القفز الى حافة الرصيف أو الى نقطة اخرى على ضفة النهر.

وضعت يدها حول فمها ونادت بأعلى صوتها، لجذب انتباه احد الرجال العاملين فى الكروم والحقول المجاورة... فلم يسمعها أحد. كان الطقس جيدا، والجو دافئا، ومياه النهر تبدو هادئة ساكنة... فلم تشعر ايلاين بأى خوف أو قلق. تمددت على الزورق ووضعت يدها تحت رأسها، على وجهها الشاحب يكسب بعض النضارة والاحمرار.

فتحت عينيها بعد قليل وجلست، فلاحظت أن زورقها الذى ينطلق بسرعة اكبر الى حد ما اصبح فى وسط منطقة واسعة جدا من ذلك النهر. انبطحت فورا على الحافة القريبة منها وراحت تجذف بيدها اليمنى بأقصى قوتها لتتمكن على الأقل من تحويل الزورق الى احدى ضفتى النهر. ولكن الزورق كبير الحجم وثقيل الوزن، فلم يتجاوب مع محاولاتها المتعددة اليائسة. وفجأة، سمعت هدير مياه على بعد بضع مئات من الأمتار. تذكرت الشلال المزمجر، الذى لم يجرؤ على تحديه سوى نفر قليل من المغامرين الأشاوس فى زوارق مطاطية معدة خصيصا لمثل هذه الرياضة المحفوفة بالأخطار.

أصابها هلع شديد، وقررت فورا التخلى عن الزورق قبل تعرضها لمشاكل هى بغنى عنها. قفزت منه الى الماء وسبحت الى الضفة، فوصلتها متعبة بسبب قوة التيار واندفاع المياه. جلست على صخرة صغيرة ووضعت رأسها على ركبتيها، لالتقاط انفاسها وأخذ قسط من الراحة.

وقفت بعد لحظات وتطلعت نحو النهر، فلاحظت اختفاء الزورق. هزت رأسها وراحت تعصر شعرها المبلل، وهى تفكر بهذه المغامرة التى قامت بها فى بداية اليوم الأول لوصولها. ضحكت عندما تخيلت نفسها جالسة مع بيار، تشرح له ما حدث معها.

- يسرنى انك لا تزالين قادرة على الضحك.

شهقت دهشة واستغرابا، واستدارت نحو مصدر الصوت المألوف لتشاهد بيار واقفا قرب دراجته الهوائية. سألته بلهفة:

- من أين اتيت؟

- كنت فى طريق عودتى من جولة تفتيشية فى منطقة قريبة من النهر،

فرأيت زورقا خاليا يندفع مع التيار باتجاه الشلال ثم رأيتك جالسة هنا. ماذا كنت تحاولين؟ اغراق نفسك؟

- طبعا لا! لم اكتشف عدم وجود المجذاف، الا بعد ابتعاد الزورق عن المكان الذى يربط فيه. وعندما فشلت فى تحويل مساره الى احدى الضفتين، قفزت منه وسبحت الى هنا. على أى حال، اشك كثيرا فى امكانية غرق أى انسان يعرف السباحة جيدا... فى هذا النهر. فهو ليس عميقا جدا، وتياره...

قاطعها بهدوء قائلا:

- ومع ذلك، فقد غرق فيه أبى

- اوه... لم... لم اكن... أعرف...

- لا تعرفين اشياء كثيرة، يا عزيزتى. وبدلا من الاستفسار عن الأشياء التى تجهلينها ومعرفة الأمور بالطرق الصحيحة والسليمة، تتسرعين فى استنباط افتراضات وانطباعات هوجاء ثم تقنعين نفسك بانها حقائق ثابتة لا غبار على صحتها وسلامتها.

- فوجئت بهجومه المفاجىء، واحتجت قائلة:

- لا، ليس هذا الكلام محقا أو منصفا! فانا لم اكن ادرى بحادثة والدك المؤسفة، لأنك لم تخبرنى أى شىء عنها. لم تطلعنى على أى موضوع، مهما كان أم تافها.

- لأنك لم تهتمى ابدا الى درجة تدفعك الى توجيه اسئلة صريحة و مباشرة.

- بلى، بلى كنت اهتم.

- ولكن ليس بما فيه الكفاية لتسألى مثلا عما اذا كان كلام سولانج صحيحا أم كاذبا، أو لتعطنى مجالا لكى أوضح بعض الأمور. لكل انسان حقه

فى شرح مواقفه، ولكنك بتسرعك حرمتنى من هذا الحق المقدس. فبمجرد اكتشافك شيئا عنى لم يعجبك، وتصورت انه يجرح شعورك وكرامتك واحترامك لنفسك، تصرفت حسب عادتك كفتاة مدللة سخيفة. قررت الهرب، عوضا عن مواجهة الأمور كأى زوجة عاقلة. مضت ثمانية أشهر على فرارك، وأنت لا تزالين غير قادرة على تحمل مسؤولياتك كزوجتى.

اشعلت كلماته القاسية وقود غضبها وسخطها، فتحفزت للمبارزة والقتال. تنهدت بانفعال بالغ، للتمكن من الرد عليه بعنف مماثل، وقالت:

- المسؤولية! مسؤوليتى كزوجتك... هذا كل ما سمعته منك منذ عودتى! اذا كنت تعتقد اننى سيئة جدا كزوجة، فلماذا لا تطلقنى؟

- لأننى سألعن نفسى ولن أسامحها اذا تركتك تتزوجين من شخص يدعى... جيرالد.

- تقول ذلك لمجرد تحويل افكارى عن لب الموضوع! لا ليس هذا هو السبب اطلاقا! انت تريد شامبورتن، ووصية الخال ارمون فى وضعها الحالى لا تمنحك سوى النصف.

حدق بها لحظة ثم هز كتفيه، وكأنه يعتبر المضى فى هذا الجدل العقيم هدرا لوقت ثمين. تأمل بسرعة الوردة المبللة، وقال لها:

- تبدين فى وضع لا تحسدين عليه ابدا، من حيث الشكل والرائحة.

- كم انت لطيف ولبق واجتماعى!

استدارت بعصبية نحو القصر وبدأت تمشى حافية القدمين، وهى تشعر بالوخز المؤلم للحجارة الصغيرة الحادة. اوقفها فى مكانها، صارخا بانفعال:

- هل تركت البيت دون حذاء؟

ردت عليه بنبرة حادة مماثلة، وهى تتابع طريقها:

- خلعت الحذاء فى الزورق، عندما قررت القفز الى الماء والسباحة الى اليابسة.

لحق بها بيار، وهو يمسك دراجته، ثم قال لها مؤنبا:

- لم يكن هناك أى لزوم للتخلى عن الزورق، فذلك يتعارض مع كافة قوانين السلامة. كان يجدر بك البقاء فيه، لأن الغرق فى النهر لم يكن بعيد الاحتمال.

- كنت سأتعرض للغرق ايضا لو لم اقفز منه، بسبب السد المقام قبل الشلال.

- السد؟ اى سد، وأى شلال؟

- الشلال الذى يقع على بعد بضع مئات من الأمتار. اننى أستطيع سماع هدير الماء.

- فى مخيلتك فقط، ايتها الذكية. فالسد الوحيد فى هذه المنطقة كلها يقع قرب قرية لوتين، وهى تبعد حوالى سبعة كيلومترات من هنا. لم يكن بامكانك الوصول الى منطقة السد، لأن الزورق كان سيتوقف على احدى الضفتين بسبب التعرجات العديدة التى يمر بها النهر. وعندها، كنت ستنزلين منه بهدوء الى اليابسة وتعودين الى القصر سيرا دون خسارة الزورق... أو الحذاء.

لم تشك ايلاين فى صحة كلامه، فهو يعيش هنا منذ طفولته ويعرف كل شبر فى المنطقة ونهرها. لقد تصرفت مرة أخرى باندفاع وتسرع، وها هى الآن مضطرة للسير حافية القدمين وتحمل كافة الأوجاع والآلام التى ستنجم عن ذلك. قال بيار بهدوء:

- اذا احببت الجلوس امامى على الدراجة، فسوف آخذك الى البيت. ليس لدى وقت كاف لكى اسير معك.

- شكرا، لا حاجة لذلك ابدا. لا اريد تأخيرك عن عملك.

لن تقبل أى خدمة منه، ولن تفسح له اى مجال آخر للاقتراب منها. رفعت رأسها بعنفوان وتحد، وعادت الى السير باتجاه القصر. ولكنها توقفت ثانية وهى تكاد تصرخ من الألم، بسبب الحجر المسنن الصغير الذى داست عليه خطأ. وقفت على رجل واحدة ورفعت قدمها لترى حجم الأضرار التى لحقت بها، فشاهدت ثقبا صغيرا يسيل منه الدم. صرخ بها بيار، بانزعاج واضح:

- رباه، كم انت عنيدة! وأنانية ايضا، تضعين نفسك دائما فى المقام الأول ولايهمك ما قد يلحق بغيرك من مضايقات نتيجة تصرفاتك السخيفة المتهورة!

- افرح وهلل! انا عنيدة وأنانية وغبية، ولكننى لا ارى أى علاقة اطلاقا بين عودتى الى البيت سيرا... وكيفية التسبب فى مضايقة الآخرين.

- ستصاب قدماك بجروح بالغة وتورم شديد، وهو ما يحرمك من السير عليهما فترة طويلة. قد تتحملين العذاب لمسافة قصيرة، ولكن البيت يبعد حوالى ثلاثة كيلو مترات من هنا. هيا، يا ايلاين، واصعدى امامى. فلن تكون المرة الأولى التى نركب فيها معا.

هل ستتحمل القرب منه للمرة الثانية خلال يوم واحد، دونما اى اضطراب فى مشاعرها أو احاسيسها؟ ولكن الطريق طويلة وصعبة، والحر شديد ومرهق...

- حسنا.

جلست امامه، وهى تتظاهر بالبرودة واللامبالاة. وما ان مد اليد الأخرى لكى يمسك بالمقود، وانحنى قليلا الى الأمام ليتمكن من دفع الدراجة، حتى أحست بحرارة جسمه تذيب أى مقاومة قد تحاول اللجوء اليها... فى حال تعرضها لأى هجوم محتمل.

٤ ـ الحل الوحيد

يا له من جو شاعرى حالم! خرير المياه، زقزقة العصافير، تموج الظلال، و... وجودها هكذا بين ذراعيه القويتين! نسيت امتعاضها منه وكرهها له، وغابت فى حلم اليقظة فتخيلت نفسها فجأة بطلة احدى قصص الفروسية والغرام. انقذها الفارس الشجاع من النهر الذى كاد يتحول الى قبر، وها هو الآن ينطلق بها على صهوة حصانه الى القصر وهى بين يديه... حيث ستكافئه على حسن صنيعه.

ولكن قوة تنفس منقذها الوسيم جعلتها تفيق من ذلك الحلم، وتنتبه الى أن الطريق لم تعد مستوية. هل ستجرح شعوره وكبرياءه، اذا اقترحت عليه النزول عن دراجته والسير مسافة قصيرة لحين عبورهما هذا المرتفع الصغير؟ سيعتبر كلامها تحديا لرجولته وقوته. و... لقد تأخرت كعادتها فى اتخاذ القرار المناسب، اذ تجاوزا مراحل الصعود وتحولت الطريق الى الانحدار.

كبح بيار الدراجة فجأة فارتجت بين ساعديه وصدره وشعرت بانحباس أنفاسها. سألته عما حدث، فأجابها بهدوء:

- كنا ننطلق بسرعة كبيرة، كادت تشكل خطرا علينا.

- هل اشكل عبئا ثقيلا على الدراجة؟

- انت؟ لا يا عزيزتى، فأنت خفيفة كالريشة تماما.

لم تعلق على جملته، فبدأ يدندن لحنا حزينا تصورت انه مألوف لديها الى حد سألته عن النغم الذى يردده، فقال:

- انها اغنية قديمة جدا تتحدث عن نبع صاف، تذكرتها عندما شاهدتك جالسة قرب النهر.

هل يعقل أن يكون هذا الرجل القاسى، رقيق القلب والمشاعر احيانا بهذا الشكل؟ دفعها الفضول الى معرفة المزيد عن هذه الأغنية... وعنه، فقالت له:

- اخبرنى كلماتها، من فضلك.

- المقطع الأول فقط. عندما ستسمعين كلماته، ستعرفين لماذا تذكرت هذه الأغنية.

ردد لها الكلمات بهدوء، فأحست ايلاين ان ما من ترجمة لها يمكن أن تعطيها حقها وتحافظ على رقتها وجمالها. ومع انها ليست ضليعة فى أى من اللغتين، الا ان المعنى الحقيقى لهذا الشعر العذب لم يفتها إطلاقا. ابتسمت ضمنا، وهى تفسر الكلمات الحلوة لنفسها:

" عندما كنت واقفا قرب النبع الصافى، شعرت باغراء الماء الذى لا يقاوم. لبيت الدعوة صاغرا مسرورا، ونزلت اليه لأسبح ".

لاحظ بيار أنها تحاول التمعن بكلمات الأغنية. فسألها:

- هل وجدت مطلع الأغنية ملائما لما حدث؟

- نعم، اعتقد ذلك. هل تذكر مقاطع اخرى من الأغنية؟

- نعم، ولكنها ليست عن الماء أو السباحة.

- عما تتحدث اذن؟

- عن حب مضى. يقول آخر بيت فى الأغنية: " احببتك منذ زمن طويل، ولن انساك ابدا".

- اغرورقت عيناها بالدموع، فلم تعد قادرة على رؤية أى شىء بوضوح.

الأشجار، الهر، الطريق، اصبحت كلها صورة مشوهة... ملطخة... وحزينة. لو انه يعنى هذه الكلمات التى يغنيها لها الآن! لو انه على الأقل كتبها فى تلك الرسالة، التى طالبها فيها بالعودة، لكانت عادت اليه على جناح السرعة! لو انه يحبها... ولكنه لم ولن يحبها ابدا. لقد احب دائما امرأة اسمها سولانج... ولا يزال... وسيظل يحبها حتى آخر يوم فى حياته. قالت له بصوت منخفض:

- اغنية جميلة، ولكنها فى ذات الوقت حزينة.

- انها حقا حزينة. ولكن الندم باستمرار على علاقة حب مضت وانتهت، من شأنه ادخال الحزن والأسى الى قلب الانسان... واضاعة وقته وهدر طاقته.

- وانت لن تسمح بحدوث امر كهذا، اليس كذلك؟

- طبعا لا! فأنا رجل عملى، واؤمن بضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة مثل هذه المشاكل.

ولكنه لم يتخذ أى اجراءات، عندما تركته قبل حوالى تسعة اشهر. اذن، فهو لاشك يشير الى علاقته مع سولانج. فما أن ظهر حبه القديم، حتى سارع الى اتخاذ الخطوات اللازمة... عوضا عن اضاعة وقته وطاقته فى الندم على قرار الزواج. ويبدو ان قسم الاخلاص والوفاء لها مدى الحياة، لم يكن يعنى له اى شىء على الاطلاق.

مع ذلك، فقد ذكرت امه هذا الصباح انه حزين. لماذا؟ اى شىء يسبب له الحزن اذن، ان لم يكن نادما على فقدان حبه القديم؟ عقدت ايلاين جبينها فجأة، وهى تتذكر كلام بيار عن الليلة التى امضاها فى باريس... وكيفية ملاحقته لها دون اقدامه على محاولة تجاوزها وايقافها. لو لم تنزلق سيارتها الى تلك القناة، لما كان حذرها من موقف خالها تجاهها... وكانت ستعود الى لندن وقد حرمت من الارث بسبب رفضها المصالحة مع زوجها.

ألا يثبت ذلك كله ان حزنه ناجم عن حضورها الى شامبورتن؟ إنه لا يريد عودتها، ولكنه لا يوافق ايضا على الطلاق . لماذا؟ الجواب بسيط للغاية، ومزعج الى درجة مذهلة. فهو يحاول ابعادها الى لندن لكى تخلو له الساحة مع حبيبته، ويعارض الطلاق كيلا تفوته فرصة المشاركة فى وراثة شامبورتن.

أوقف بيار الدراجة فجأة، فتوقفت هى بدورها، ولو مؤقتا، عن التفكير بتلك الأمور السوداء المزعجة. تطلعت حولها، فشاهدت الرصيف الخشبي الذى انطلقت منه قبل بعض الوقت. من المؤكد ان بيار سيطالبها بالنزول الآن، لاستحالة صعودهما معا نحو القصر. نزل بيار وقال لها، فيما ظل ممسكا بالدراجة:

- اجلسى على المقعد مكانى، لأدفعك بقية الطريق.

- تأملت وجهه بسرعة، فبدا كعادته قناعا يحجب كل افكاره ومشاعره عن الآخرين. لم تلاحظ سوى التململ والتأفف، وكأنه يعتبرها عبئا ثقيلا ومصدر ازعاج... أو بالأحرى عقبة كبيرة يريد التخلص منها فى أقرب فرصة، مع انه غير قادر على ذلك. قالت له:

- بيار، اعرف ان لديك اعمالا كثيرة و...

- لا تضيعى وقتى، اذن، بالنقاش والجدل. على أى حال، انا ذاهب الى البيت.

- يمكننى ركوب الدراجة بمفردى.

- ألا تلاحظين ان الدراجة كبيرة جدا وان الدواستين مسننتان؟ الا تعلمين اننا قد نتوصل الى نوع من الحل الوسط، اذا حاولت التوقف ولو لمرة واحدة عن معارضتى فى أى شىء اريده أو اطلبه؟

- حل وسط؟ اوه، اشك كثيرا فى احتمال توصلنا الى حل وسط فى أى موضوع كان. فأنت انسان بعيد كل البعد عن المرونة والليونة.

- وأنت تتغيرين وتتبدلين باستمرار. يجب على احدنا أن يظل مستقرا على رأى ما. هيا، اجلسى على مقعد الدراجة، فلدى كثير من الاعمال يجب انجازها قبل موعد الغداء.

تأملت ايلاين الدراجة والدواستين والطريق، فتأكدت من صحة كلامه مجددا. انه على حق، كعادته! اللعنة عليه، وعلى غطرسته! ستضطر للرضوخ مرة اخرى! جلست على مقعد الدراجة وأمسكت بقميصه، كيلا تهوى الى الوراء. وما ان وصلا الى باحة القصر، حتى ظهرت امامهما السيارة الحمراء الصغيرة. نزلت ايلاين عن الدراجة، وقالت لبيار:

- اوه! نسيت إخبارك عن الرينو!

- تصورت ذلك. ماذا تفعلين بها؟

- ماذا سأفعل بها؟ ماذا تعنى؟

- اما ان تحتفظى بها وتتحملى نفقات استئجارها الباهظة، وأما أن تعيديها ثانية الى الشركة. هذه مسؤولية اخرى يتحتم عليك اتخاذ قرار بشأنها، يا ايلاين.

- هل يوجد فرع لهذه الشركة فى المناطق المجاورة؟

- لا اعرف، فأنا لا استأجر سيارات. ألم تسألى مكتب المطار عن ذلك؟

- لا، لم افكر. . .

قاطعها بلهجة ساخرة:

- انت لا تفكرين ابدا.

- آه منك، ومن تلك الملاحظات اللاذعة الجارحة! فقد أخبرتك من قبل... كنت أتوقع عودتى الى لندن صباح يوم الاثنين، وبالتالى اعادة السيارة بعد ظهر غد الى باريس.

- ألم تفعلى ذلك؟

- طبعا لا! قلت اننى سأبقى هنا الى أن يصبح وجودى غير ضرورى. سأظل فى شامبورتن، طالما ان خالى ارمون لا يزال على قيد الحياة.

- وماذا انت فاعلة بعد وفاته؟

- لا ادرى، فثمة اشياء... ارجوك، يا بيار، تفهم موقفى. لست قادرة بعد على اتخاذ اى قرار منطقى ومعقول، بالنسبة لموضوع البقاء هنا بصفة دائمة. فهناك امور عديدة بحاجة الى الدرس والتحليل، قبل التوصل الى مثل هذا القرار.

- حسب معرفتى بك، فأنت غير قادرة اطلاقا على اتخاذ اى نوع من القرارات المنطقية المناسبة. لا يصدر عنك فى أى قضية، حقيقية كانت ام من صنع خيالك، سوى ردود فعل عاطفية واندفاعية متهورة. فعلت ذلك قبل تسعة اشهر، وأقدمت على خطوة مماثلة، عندما قفزت من الزورق. لا تحاولى مناقشتى الآن، فنحن لسنا فى المكان والزمان الصحيحين لبحث هذه الأمور.

انت تحتاجين للاغتسال ولثياب جافة، وأنا اريد مقابلة دان سميث.

أحست فجأة برغبة قوية لملاطفته، ولاقناعه بأنها ليست دائما انانية لا تفكر الا بنفسها... كما يحلو له وصفها باستمرار. قالت له:

- بيار، انا آسفة لازعاجك هذا الصباح... وشكرا جزيلا على ايصالى الى هنا.

استدار نحوها ليقول شيئا ولكن مارجريت خرجت فى تلك اللحظة من الباب الكبير وسألتها وعلامات الدهشة تعلو وجهها:

- آه، ايلاين، ماذا فعلت بنفسك؟ ماذا حدث لك؟

اخبرتها عما حدث معها فى النهر، فأنبتها مارجريت قائلة بحدة:

- يالك من فتاة متهورة طائشة، توقع نفسها فى ورطة بعد اخرى كطفلة صغيرة! حان الوقت، ياعزيزتى، لتنضجى وتصبحى شابة راشدة. اوه، وهذه الرائحة الكريهة التى تفوح منك اشبه برائحة المستنقعات! اصعدى فورا الى غرفتك واخلعى هذه الثياب الوسخة، ثم احضريها الى غرفة الغسيل لتنظفها لك مارى. هيا اسرعى! استيقظ ارمون قبل قليل، وهو يرغب فى التحدث اليك.

نفذت ايلاين تعليمات السيدة المسنة بسرعة ودقة، و دونما أى اعتراض أو تعليق. ولما ذهبت الى غرفة خالها بعد اقل من نصف ساعة، لاحظت ان الرجل العجوز لا يزال على حاله... كما شاهدته فى اليوم السابق. ولكنه ابتسم لها عندما حيته، وقال بصوته المتعب الضعيف:

- عدت اخيرا، ايتها الحبيبة. كان قرارك خطأ كبيرا، ولكنك عدت الآن وستبقين هنا. أليس كذلك؟

تطلعت ايلاين بدهشة وذهول نحو مارجريت، فهمست فى اذنها:

- لقد نسى انك حضرت امس. لاتعتبى عليه كثيرا، فذاكرته لم تعد قوية اطلاقا. سيكرر لك الأقوال ذاتها بضع مرات، فكونى صبورة معه.

ضغطت ايلاين برفق وحنان على اليد المرتعشة التى مدها لمصافحتها، وقالت له:

- نعم سأبقى، ياخالى. سأبقى معك.

- ومع بيار، مع زوجك. على المرأة البقاء دائما مع زوجها. انا اعترض جدا على ما يسمى الزواج العصرى، وعلى التقلبات المذهلة التى تحدث خلاله. واعترض ايضا على التى تدعى بأنها زوجة عصرية متحررة. هل تسمعين، يا ايلاين؟ لا تعجبنى ابدا المرأة التى تتخلى عن زوجها فجأة، بمجرد اكتشافها ان الزواج لا يقتصر على تبادل العناق أو الحب... بل هو ايضا مسؤوليات وواجبات ومشاركة. اريد ان اسمع منك الآن انك ستبقين معه، ولن تتركيه ابدا.

- لا تقلق يا خالى، سأبقى معه.

تنهد الرجل المريض، ثم أغمض عينيه وتمتم قائلا:

- عظيم، عظيم. يمكننى الآن أن اموت مطمئن البال مرتاح الضمير. كنت قلقا جدا عليك، يا ابنتى، بحيث اننى بدأت التفكير جديا بتغيير وصيتى مرة اخرى.

فتح عينيه وركز نظراته الضعيفة عليها، ومضى الى القول:

- ارى الآن شعرك الأشقر الجميل يلمع تحت اشعة الشمس الذهبية. انت

صبية جميلة، ولكنك عنيدة جدا تماما كجدتك. أصرت، رحمها الله، على ان تكون شامبورتن لك دون سواك. قلت لها مرات عديدة ان فتاة صغيرة مثلك لا تقدر على ادارة القصر والممتلكات، بما فى ذلك الكروم والبساتين والمعمل.

اغمض عينيه مرة اخرى، وتابع قائلا بصوت سمعته بالكاد:

- ليست لديك، ايتها الحبيبة، القوة والخبرة الكافيتان لتحمل هذه المسؤولية الضخمة بمفردك. انت بحاجة الى شخص مثل بيار. فهو رجل قدير وطيب. ولهذا السبب، فقد أعددت الترتيبات اللازمة.

- أى ترتيبات، يا خالى؟

- زواجك من بيار. اقدمت على تلك الخطوة، لأنى وجدتها أفضل الحلول... أو بالأحرى الحل الوحيد. لم اتمكن من الزواج من مارجريت، الى ان تجاوزنا سن الانجاب. وعليه، كان زواجك من بيار الحل الوحيد...

انتظرت ايلاين بضع لحظات حتى تأكد لها نوم الرجل العجوز، فسحبت يدها بتمهل من يده وتوجهت نحو النافذة للتحدث مع مارجريت. كانت السيدة الهادئة منهمكة فى تطريز احدى قطع القماش، وكأنها لا تعير اهتماما اطلاقا بما يجرى حولها. وقفت ايلاين قربها، وراحت تتأمل النهر المشع وضفتيه الخضراوين... وتفكر بموضوع زواجها . لقد ثبت لها الآن، وبشكل قاطع وحاسم، ان زواجها من بيار جاء كنتيجة لترتيبات وتدابير معدة سلفا. ولكن، هل يعقل أن يكون ارمون قد أقدم على هذه الخطوة الهامة دون تشجيع من السيدة الحكيمة؟ قالت لها:

- عاد الخال ارمون الى النوم مجددا.

- سينام قريبا إلى الأبد.

ثم تنهدت وأضافت قائلة بصوت هامس:

- آه، يا حبيبى المسكين! كم من معاناة وألم لاقيت فى حياتك، وكم كانت السعادة الحقيقية بعيدة عنك معظم حياتك!

- تأملتها ايلاين بضع لحظات ، فيما كان رأسها يضج بأسئلة لابد يوما من توجيهها وسماع اجابات صريحة عنها. لماذا لا تسألها الآن؟

قالت لها:

- ابلغنى بيار هذا الصباح ان والده غرق فى النهر. فكيف وقعت تلك الحادثة؟

نظرت اليها مارجريت بدهشة، وسألتها:

- هل تذكرين جان؟

- قليلا جدا. لم يكن يأتى كثيرا الى القصر، أليس كذلك؟

- صحيح وكان يأتى عادة للتحدث مع ارمون فى امور تتعلق بالعمل. ولكنى متأكدة من انك رأيت جان اكثر من مرة فى بساتين شامبورتن.

- ربما. ألا يشبهه بيار الى حد ما؟

- نعم. فالبنية ذاتها، وكذلك المنكبان العريضان والصدر الواسع والرجلان القويتان، ولكن ملامح الوجهين مختلفة بشكل كبير.

- اذكر جيدا انه لم يكن يتحدث الى ابدا.

- كان صريحا مع نفسه ومع الآخرين. لم يكن يحب جدتك، ومما لا شك فيه انه كان يعتبرك صورة مصغرة عنها.

- اوه! لماذا لم يكن يحبها؟

ابتسمت مارجريت بطريقة غامضة، وقالت:

- سمعها مرة تتحدث معى بفظاظة بالغة، فقرر ألا يسامحها ابدا.

كان عنيفا فى استقلاليته واعتماده على الذات، وشرسا فى دفاعه عن حق كل انسان بالحرية والكرامة. لم يحب الانور اطلاقا، لأنها كانت تعتبر عائلة سان فيران ارفع وأرقى من أى عائلة اخرى، لمجرد انها عائلة عريقة تعيش فى شامبورتن منذ مئات السنين.

- وعلى الرغم من ذلك، فهو لم يرفض العمل مع الخال ارمون!

- آه، كانت تلك مسألة مختلفة تماما.

ثم تنهدت مارجريت، واضافت قائلة:

- كان غرقه قضاء وقدرا. ففى فصل الربيع من كل سنة، عندما تبدأ الثلوج بالذوبان، يرتفع منسوب المياه فى النهر وتتدفق كميات هائلة فى الحقول والبساتين المجاورة. وقبل خمسة عشر عاما، حدث فيضان رهيب واجتاحت المياه كافة انحاء القرية بنسبة لم تشهد لها المنطقة مثيلا من قبل. ذهب جان وبعض الرجال الأقوياء للعمل على انقاذ الناس من بيوتهم التى اجتاحتها السيول. وقع طفل من احدى النوافذ الى السيل الجارف، فاستنجدت الأم بجان لانقاذ الصغير. اخرج معظم جسمه من النافذة، فى محاولة يائسة للامساك بالطفل، ولكنه هوى وراءه فجرفهما السيل و... توفيا.

شحب وجه ايلاين تأثرا، وقالت بلهجة صادقة لا تعرف التكلف:

- يا للهول والفظاعة! لاشك فى انك حزنت كثيرا على فراقه.

- طبعا، فقد كان جان رجلا طيبا للغاية... وكنا سعيدين جدا.

- قيل لى مرة... انك تزوجته، لأنك وجدت الأمر مناسبا وملائما.

لم تكن تود توجيه سؤال كهذا الى مارجريت، وبخاصة اثناء التحدث عن موضوع حساس جدا كحادثة الغرق. ولكن اللسان هذه المرة كان أسرع من العقل و... سبق السيف العذل. اجابتها مارجريت بلهجة عادية اذهلتها:

- طبعا، طبعا. اردت ان اعيش معه وأكون بقربه طوال الوقت، ولم يكن لدى بالتالى أى حل اكثر ملائمة من الزواج. هكذا كانت تقضى التقاليد والعادات فى ايامنا، ايتها العزيزة... اما اليوم، فكل شىء مختلف.

- هل كنت تحبينه؟

- الحب؟ اوه، ايلاين، ماهو الحب؟ نظريات، أفكار، آراء؟ هل هو تجاذب مغناطيسى قوى بين ضدين؟ هل هو استعداد للغفران وتناسى الأخطاء، وتقبل التغيرات؟ انت لديك رأيك وتفسيرك، وأنا ايضا لدى نظرة معينة بالنسبة الى هذا الموضوع البالغ الحساسية. وحسب وجهة نظرى، فقد كنت احب جان... وكنا سعيدين معا ومع اولادنا الثلاثة... بيار وشقيقتيه.

نظرت ايلاين مرة اخرى نحو النهر فى محاولة لإيجاد الشجاعة الكافية لتوجيه السؤال التالى. تنهدت بصوت منخفض، وقالت لها:

- خالتى مارجريت، سامحينى على هذا السؤال الشخصى جدا... ولكنى اريد معرفة الجواب بصراحة. حسب وجهة نظرك عن الحب، هل تحبين ايضا خالى ارمون؟

- بالتأكيد ياعزيزتى. وهل اسهر على راحته واعتنى به لو لم اكن احبه؟

- لا... لا اعتقد ذلك . ولكن... هل كنت تحبينه قبل جان؟

تأملتها مارجريت بهدوء وجدية، ثم قالت لها:

- احضرى كرسيا واجلسى قربى، يا صغيرتى، فقد حان الوقت على ما يبدو للتحدث اليك بصراحة، ولازالة بعض الاشكالات العالقة فى ذهنك ربما بسبب جدتك.

- لا، لا. كنت أقصد شخصا آخر. لم تقل لى جدتى اى شىء عنك، وقد سمعت هذه الأقوال من شخص التقيته بعد زواجى من بيار.

احضرت كرسيا وجلست قرب السيدة المسنة كما طلبت منها، ثم مضت الى القول:

- انا لا اعرف الا القليل عنك، يا خالتى. كنت طفلة صغيرة لا تعرف إلا القليل عن الناس، وفى الصيف الماضى...

توقفت عن متابعة جملتها، لأنها امضت طوال فصلى الصيف والخريف الماضيين غارقة فى الحب حتى اذنيها... صماء عمياء عما يدور حولها. قالت لها مارجريت بنعومة:

- يبدو اننى مضطرة لاطلاعك على كل شىء منذ البداية، عندما عملت لفترة كممرضة فى احد المستشفيات فى بواتيه. التقيت ارمون اثناء تلك الفترة، حيث امضى بعض الوقت فى قسم الجراحة الذى كنت اعمل فيه. توطدت بيننا عرى الصداقة، ودعانى لدى مغادرته المستشفى بعد عمليته الجراحية الى زيارته هنا فى شامبورتن. سمعت الكثير قبل ذلك عن القصر والعائلة العريقة التى تتوارثه جيلا بعد جيل، فشعرت باعتزاز كبير وسعادة

غامرة. ولكن أبى وامى تضايقا كثيرا، لأن ارمون كان عازبا يقيم بمفرده... ويكبرنى بسنوات عدة... ولأننا ايضا من طائفتين مختلفتين.

اتيت مرة الى القصر، فالتقيت آلانور وزوجها البريطانى وابنها الصغير... والدك. شعرت على الفور انها ليست مرحبة بصداقتنا. ولما حضرت فى المرة التالية ، اوضحت لى اننى شابة غير مرغوب فيها بالنسبة لعائلة سان فيران... نظرا للفوارق الاجتماعية والطبقية والطائفية. تأثرت بكلامها الى حد ما، بحيث اننى رفضت الدعوة التى وجهها لى ارمون خلال الاسبوع ذاته... والدعوات اللاحقة. وفيما كنت اغادر المستشفى ظهر أحد الأيام، فوجئت به ينتظرنى فى سيارته. طلب منى مرافقته فى نزهة قصيرة، فلم امانع. وعندما عرض على الزواج، رفضت.

- أوه! لماذا؟

- تعرفت خلال فترة الانقطاع عن زيارته على شخص آخر اعجبنى اكثر من ارمون، لأنه كان مختلفا عنه... اقوى منه... اكثر حيوية.

- جان دوروشيه؟

- نعم. كان جان الابن الأصغر لرجل يملك مساحات لا بأس بها من الحقول والبساتين، ولكنها اصغر بكثير من شامبورتن. كان افراد عائلة دوروشيه معروفين بحيويتهم ونشاطهم، وبخبرتهم الواسعة فى المجالات الزراعية. طلب منى جان بعد فترة معينة الزواج منه، فقبلت دون تردد وعقد قراننا فى بلدتى ... قبل اربعين عاما من الآن تماما.

- وماذا فعل خالى امون؟

- بعث لنا هدية عرس رائعة، ولكنه لم يقل شيئا لبعض الوقت. كان يواجه مصاعب جمة فى كرومه وبساتينه، لأنه لم يكن نشيطا أو متمرسا ولديه خبرة بما فيه الكفاية لادارة اعماله بنفسه. بدأ مستوى الانتاج والنوعية يتدنى بسرعة كبيرة، بحيث بدا ان المستوى العالمى الذى توصلت اليه عائلته منذ حوالى مئتى عام سينهار الى الحضيض. وعند ذلك، اتصل ارمون بجان وطلب منه تولى ادارة شامبورتن.

- هل شعرت بالسرور نتيجة لذلك؟

- نعم. لأجل جان. كان ذلك اعترافا واضحا بقدراته و إمكانياته، وتحولا جذريا فى اوضاعه المالية. فمع انه ورث نصف ممتلكات والده، الا ان المساحة كلها لم تكن كافية لسد احتياجات عائلتين كبيرتين.

- احتفظ بنصيبه من بساتين دوروشيه، وانتقل الى شامبورتن للعمل فيها. خصص لنا ارمون بيتا صغيرا، حيث ولد بيار وشقيقتاه. وبعد مرور بضع سنوات على اقامتنا هنا، طلب منى ارمون العمل كمدبرة منزل. وفى السنة الخامسة والعشرين لزواجنا، توفى جان غرقا ... كما تعلمين. لم اترك عملى هنا... ولما عرض على الزواج منه بعد انقضاء ثلاثة اعوام على وفاة جان، ترددت قليلا ثم وافقت. ظل مخلصا لى طوال الوقت، حتى بعد زواجى من رجل آخر لم يحب احدا غيرى خلال تلك الفترة التى امتدت اكثر من ربع قرن من الزمان، وشعرت بالتالى ان على منحه بعض السعادة مقابل هذا الوفاء الرائع والنادر.

تأثرت ايلاين بهذه القصة العاطفية الرقيقة، وباخلاص خالها المتفانى لحبه الأول والأخير. قالت مارجريت بصوت رقيق ناعم:

- اشكرك كثيرا على ابلاغى هذه التفاصيل كلها. فالشخص الذى اطلعنى على القصة كان مخطئا تماما... قالت لى انك تزوجت جان لتكونى قرب ارمون. ولكن هذ الكلام ليس صحيحا، لأن جان لم يكن يعمل هنا عندما تزوجتما...

- العكس هو الصحيح، يا حبيبتى. فمن بين الأسباب التى حدت بأرمون ليطلب من جان الانتقال الى شامبورتن وتولى ادارة اعمالها، رغبته فى رؤيتى من وقت لآخر . لم اعرف هذه الحقيقة الا عندما اخبرنى اياها ارمون بنفسه، بعد مضى سنوات على انتقالنا الى هنا. فالتى اخبرتك خلاف ذلك، لابد انها تعمدت الكذب لتشويه سمعتى والحط من قدرى وكرامتى امامك.

عصف الاحمرار بوجنتى ايلاين الشاحبتين، لأنها لم تتمكن من اخفاء ردود فعلها على تلك الملاحظة الصحيحة والذكية. احنت رأسها خجلا، فضحكت مارجريت فجأة وقالت:

- كم اتمنى معرفة السبب الذى حمل تلك المخلوقة على الادلاء بهذه المعلومات الكاذبة والمضللة. لقد تأكد لى منذ بداية حديثنا، ان الشخص المقصود هو امرأة تسعى الى الانتقام... لأنها تعرضت للانتقاد، للتأنيب، بل أكثر من ذلك كله... للرفض.

ضحكت مارجريت مرة ثانية عندما رأت نظرات الدهشة والاستغراب فى عينى ايلاين، ومضت الى القول:

لا تقلقى، يا عزيزتى ، فأنا لست عالمة بأمور الغيب أو قادرة على قراءة أفكار الاخرين. كل ما فى الأمر أن لدى خبرة الى حد ما بعقلية الناس وتصرفاتهم . ألم تكن سولانج بورجيه هى التى حدثتك عنى؟

هزت ايلاين رأسها بذهول بالغ أعجزها، فلم تتمكن للمرة الثالثة على

التوالى من الرد او التعليق على كلام مارجريت . لم تضحك السيدة الهادئة هذه المرة، ولكنها تنهدت بانقباض وقالت:

- كنت اخشى ذلك، وكان من واجبى تحذيرك منها فى حينه. اقلقنى محاولاتها للتقرب منك ومصادقتك، ولكنك بدوت سعيدة مع بيار... وتصورت ان الحب سيحميك منها.

ظهر الارهاق بجلاء فى وجه مارجريت وعينيها، فأحست ايلاين بوخز الضمير تجاه حماتها ... وبرغبة قوية فى التكفير بعض الشىء عن الظن بها بمثل تلك الطريقة المشينة. قالت لها بصدق واخلاص:

-انت متعبة جدا، يا خالتى مارجريت. لماذا لا تأخذين الآن قسطا وافرا من الراحة، فيما اذهب انا للجلوس فى غرفة الخال ارمون. اخبرينى فقط عن الخطوات المطلوبة، اذا استيقظ وأراد شيئا.

- شكرا لك، يا ايلاين، على هذا الاقتراح الكريم. أنا حقا منهكة الجسم والأعصاب، بسبب سهرى طوال الليلة الماضية. وسأقبل اقتراحك هذا بكل سرور، اذا وعدتنى بايقاظى فى حال حدوث اى تطورات غير عادية.

- اعدك بذلك.

- اذا استيقظ، اجلسى على حافة سريره... اصغى اليه... امسكى يده... اظهرى له انك مهتمة به وتحبينه. ابلغينى فورا اذا شعرت بانه متألم، أو على الأقل اطلعى الممرضة الأخرى التى تنام الآن فى الغرفة المجاورة. سأطلب من جاك احضار طعامك الى غرفة ارمون. اوه، ايلاين، ستشعرين بالضجر والملل وأنت جالسة لا تفعلين شيئا... ساعة بعد ساعة.

ابتسمت ايلاين، وقالت لها بصراحة:

- هذا ما أتوقعه، ولكننى اعتقد أنه الوقت المناسب كى ابدأ انا فى مساعدة الآخرين.

بادلتها مارجريت الابتسامة بأحلى منها، ثم قبلتها وقالت:

- انت هنا على أى حال، ونحن سعداء بوجودك... نحن جميعا، ايتها الحبيبة. وآمل من صميم قلبى فى أن يكون كلامك لخالك عن البقاء، جديا ونابعا من القلب. فهذا هو بيتك، يا عزيزتى.

اخذت مجلتين جديدتين وذهبت الى غرفة خالها، ولكنها لم تتمكن من تركيز عقلها أو اهتمامها على أى من الموضوعات الشيقة المثيرة فيهما. احضر لها جاك طعام الغداء بعد حوالى نصف ساعة، فتناولته بشىء من العصبية والقلق... وهى تفكر بأقوال تلك المرأة الخبيثة اللعينة، سولانج. دخل بيار بعد حوالى الواحدة والنصف، ووقف قرب سرير الرجل المريض ثم قال:

- يبدو مرتاحا كثيرا فى نومه، وكأن جميع مشاكله قد حلت اخيرا... وبخاصة بعدما أبلغته قرارك بأنك باقية بصورة نهائية.

- انت لا تريدنى ان ابقى، أليس كذلك؟ لم تكن ابدا راغبا فى عودتى.

- وماذا يحملك على هذا الاعتقاد؟

- لم تأت لمقابلتى فى المطار.

- ماذا دهاك الآن، يا ايلاين؟ ألم أخبرك سابقا عن سبب التأخير؟ كنت مع صديق قديم خدمت واياه عامين كاملين فى الجندية، فطالت سهرتنا عن غير قصد ونحن نستعيد ذكريات الماضى.

- حاولت الاستفسار منك امس عن سبب عدم تجاوزك سيارتى وايقافى، فأجبتنى بلهجة غامضة. فما علاقة السهرة الطويلة حتى الفجر، بعدم تجاوزى... مع انك قادر تماما على فعل ذلك؟

- ها قد عدت ثانية، ايتها العزيزة، الى تصرفاتك السابقة.

تتخيلين بعض الأمور، ثم تتخذين مواقف وقرارات معينة... بناء على هذه التخيلات.

- هذا غير صحيح اطلاقا، فانا لا اريد الا معرفة الحقيقة فقط. انت لاتريدنى هنا، وترفض مع ذلك البحث فى موضوع الطلاق. لماذا تتهرب دائما من الخوض فى هذه المسألة، على الرغم من اصرارى المتزايد لمعرفة السبب الحقيقى لهذه التصرفات المتناقضة؟

- اهدأى، فسوف تزعجين خالك. هل تعتبرين ان غرفة ارمون هى المكان المناسب لبحث مشاكلنا الزوجية؟

هبت واقفة وهى تتمتم بكلمات مبهمة، ثم توجهت نحو النافذة. لحق بها بيار، وسألها عن قرارها فيما يتعلق بالسيارة الصغيرة المستأجرة. هزت كتفيها ولم تجبه، فقال لها بلهجة مرحة يغلب عليها طابع السخرية:

- سأساعدك إذن فى اتخاذ القرار المناسب. يوجد فرع للشركة فى انجولام، وقال لى مديره قبل قليل انه مستعد لارسال السيارة غدا الى باريس مع احد موظفيه.. إذا كنت راغبة فى اخذها له بعد ظهر اليوم.

- هل انت مصمم على أن اتخلى عنها؟

- انا مجرد فلاح مقتصد لا يحب التبذير، ويحاول فقط اقناعك بتوفير

بعض النفقات غير الضرورية. فأنت لست بحاجة الى هذه السيارة أثناء اقامتك هنا، اذ توجد سيارات اخرى يمكنك استخدامها فى أى وقت ولأى غرض... حتى اذا اردت الهرب مجددا. وعليه، فهدفى مادى بحت.

- لا اقدر على الذهاب الى انجولام هذا اليوم، لأننى وعدت الخالة مارجريت بالبقاء مع خالى حتى تستطيع النوم بعض الوقت.

- لا بأس، سآخذ السيارة بالنيابة عنك. على أى حال، كنت أنوى الذهاب الى انجولام بعد ظهر اليوم.

- كيف ستعود اذن، بعد تركك السيارة هناك؟

- اوه، انك تفكرين احيانا على ما يبدو! لا تقلقى، فسوف اتدبر امرى... هذا اذا اردت العودة الليلة. اما اذا قررت البقاء هناك خلال الليل، فلن اعود الا فى وقت متأخر من قبل ظهر غد بسبب العطلة الاسبوعية. هل سوى الأمر اذن؟

لم تهمها السيارة ونفقاتها، بقدر ما همها موضوع بقائه أثناء الليل فى انجولام. هل سيمضى الليلة فى شقة سولانج؟ اللعنة! قالت متمتمة:

- نعم، اعتقد ذلك.

- آمل فى أن تقضى وقتا طيبا مع مريضك، وشكرا لك على مساعدة امى. سأراك فى وقت لاحق.

- فى وقت لاحق؟ ستعود الليلة اذن؟

استدار نحوها بعد خروجه من الباب ونظر اليها بتحد، قائلا بصوت رقيق ناعم:

- وهل يهمك أمر عودتى هذه الليلة؟ كنت واضحة جدا معى، عندما قلت لى انك تفضلين النوم على انفراد. الى اللقاء، يازوجتى العزيزة.

فتحت الباب الذى أغلقه وراءه بهدوء، وهى تشعر برغبة جامحة فى اللحاق به. ولكن... ماذا ستقول له عندئذ: هل ستعترف له بأنها مهتمة كثيرا بأمر عودته هذه الليلة وبأنها لا تريد النوم وحدها بعد اليوم؟ هل يمكنها الافصاح له عن استعدادها التام لاستضافته فى ذلك السرير المزدوج، وللقيام بأى شىء للحيلولة دون تمضيته الليل مع سولانج؟ اوه، يا لهذه الغيرة القاتلة التى تثبت بشكل قاطع... انها... مازالت تحبه، وتريده ان يبادلها هذا الحب!

دخل حياتها قبل سنة، وتملكها بصورة تامة... قلبا وروحا وجسما. و ها هو الآن، وبعد أقل من اربع وعشرين ساعة على وصولها، يعيد الكرة من جديد. هل فشلت جميع محاولاتها خلال الأشهر التسعة الماضية لنسيانه، ولطرده من حياتها... وقلبها؟ تصورت انها نجحت فى ذلك وأصبحت على وشك التعلق برجل آخر، ولكن ساعات قليلة قضتها معه احبطت كافة المحاولات والجهود لمقاومة سيطرته وهيمنته عليها!

- ايلاين؟ هل لا تزالين هنا؟

- نعم، يا خالى.

- عظيم. انا سعيد لبقائك هنا. ثمة أشياء كثيرة اريد إطلاعك عليها، وبخاصة وصيتى.

- لا تتعب نفسك ابدا، يا خالى، بالتحدث عن موضوع كهذا.

- بلى، ياعزيزتى، فمن الضرورى جدا ابلاغك جميع التفاصيل. اريدك أن تبقى هنا مع بيار... وتظلى زوجته. اذا هجرته مرة اخرى أو طلقته،

ستفشل خطتى... وستتحول شامبورتن الى أيد غريبة. ايلاين، انا اعتمد عليك. اريد أن تبقى هنا وتحافظى على تقاليد عائلتنا، ولكنك لن تتمكنى من ذلك وحدك ودون مساعدة بيار.

- ارجوك، يا خالى، لا ترهق جسمك وأعصابك أكثر من ذلك. دعنى اتحدث اليك وأخبرك عن عملى، فسوف يسرك ذلك الى درجة كبيرة. يقول تشارلز اننى اصبحت خبيرة فى المجالات الزراعية، ولدى معلومات وافرة ووافية فى حقل التسويق وادارة الأعمال.

- انا سعيد جدا، يا حبيبتى، فهذه دماء سان فيران التى تجرى فى عروقك. ولكنه يتحتم عليك... عليكما انت وبيار، انجاب طفل... لا، عدة اطفال. لو بقيت هنا، يا ابنتى، لكنت الآن فى مرحلة متقدمة من الحمل... وكنت سأشاهد حلمى يتحقق امام عينى... وقبل مماتى. لن افهم ابدا سبب هجرك لبيار. لا افهم اساليب شابات هذا العصر، ولكنك عدت وستبقين كما وعدتنى. واذا كان بيار من تلك الطينة من الرجال، التى اعتقد جازما انه منها، فلن يدعك تتركينه مرة اخرى. ابقى معه، لتنجبى وريثا لشامبورتن.

تنهد بحسرة ومرارة وارتجفت يده الضعيفة الممسكة بيدها، ثم اضاف بلهجة حزينة مؤثرة:

- كنت اتمنى من صميم قلبى ان احمل طفلكما الأول على الأقل بين ذراعى هاتين، وأضمه الى صدرى بنفس المحبة والحنان اللذين اكنهما لك. ولكنى اعرف الآن اننى لن اكون هنا عندما يولد ذلك الطفل الحبيب.

أحست ايلاين برغبة شديدة فى البكاء. ها هو خالها المحتضر ينتظر منها ردا ايجابيا، ولكنها لم تتمكن من الزام نفسها بوعد كهذا. قالت له بصوت مرتجف:

- انا احب الأطفال، يا خالى، ولكن الانجاب قد لا يكون ممكنا بصورة دائمة.

- ماذا؟ ماذا تعنين بانه ليس ممكنا انت شابة قوية وتتمتعين بصحة جيدة وبيار رجل اكثر من طبيعى... جسميا و عقليا. هل تحاولين الايحاء لى بانك امرأة باردة جامدة متحجرة، لا تشعر بأى تجاوب مع الرجل؟ اذا حاولت ذلك، فلن اصدقك... لأنى كنت اراكما فى الصيف الماضى كثيرا بأم العين تتبادلان العناق المحموم حتى قبل زواجكما. انت لا تعانين من اى مشكلة، ايتها الحبيبة أليس كذلك؟ آه، رباه، ستكون القشة التى ستقصم ظهر البعير... اذا قلت لى، لا سمح الله، انك... عاقر! أحست ايلاين بالخجل من كلام خالها، وسرها ان ما من احد يسمع كلامه ويشاهد احمرار وجنتيها. لم يتحدث معها اى انسان، وبخاصة الرجال بمثل هذه الصراحة المتناهية من قبل... عن امور شخصية الى هذه الدرجة وادهشها اكثر من ذلك صدور هذا الكلام عن خالها العجوز بالذات الذى كانت تعتبره دائما رمزا للتعقل والحكمة و الجدية. قالت له بتردد:

- لا... لا اعتقد ذلك.

- هذا يعنى انك غير متأكدة. سنعرضك على الطبيب سيرفين لاجراء المعاينات و الفحوصات اللازمة،

ولمعالجتك فى الحال ...

- لا،اوه، لا حاجة لذلك ابدا. فأنا لا اعانى من أى شىء من هذا القبيل، يا خالى. صدقنى، فصحتى بخير والحمد لله.

- لماذا أوحيت اذن بانكما لن ترزقا اطفالا؟ انت هنا الآن... انت زوجته وعلى وفاق معه، فماذا يحول دون ممارستكما مهامكما الزوجية و... و...

لم يتمكن من اكمال جملته، نتيجة لنوبة السعال الحادة التى انتابته. قفزت ايلاين من مكانها ثم انحنت فوقه وقالت بلهفة صادقة و مذعورة:

- ارجوك، يا خالى اهدأ وخفف من توتر اعصابك. سيكون كل شىء على افضل وجه... اعدك بذلك. سأحقق رغبتك، باذن الله.

توقف السعال، ولكن صدره الضعيف ظل يعلو ويهبط ... وكأنه غير قادر على التنفس. اختفى اللون تماما من شفتيه المرتجفتين، وحل ازرقاق مرعب محل الشحوب والاصفرار فى وجنتيه. سألته بخوف وذهول:

- هل انت بخير؟ هل تشعر بألم هل اوقظ الممرضة أو خالتى مارجريت؟

ضغط على يدها بقوة لم تكن تتوقعها، وقال لها:

- لا، لا، يا ابنتى. سأكون بخير خلال لحظات لقد وعدتنى الآن، وهذا يريحنى ويسرنى بشكل كبير. ان لم تبقيا معا ويرزقكما الله عز وجل طفلا، أو بالأحرى مجموعة اطفال، فلن يتحقق حلمى...

اغرورقت عيناه المتعبتان بالدموع التى بللت خديه ووسادته فسألته:

- أى حلم، يا خالى؟

- الحلم اياه، الذى يراودنى منذ سنوات عديدة، الحلم بولادة طفل تجرى فى شرايينه دماء عائلة سان فيران... ودماء المرأة التى احببتها من كل قلبى. انت تعرفين انها تزوجت رجلا آخر... تزوجت جان دوروشيه، ومع ذلك فقد بقيت احبها عن بعد... كأولئك الفرسان المساكين فى قصص الفروسية والغرام. هل تذكرين، يا ابنتى، تلك القصص التى اخبرتك اياها عن اغانى شهداء الحب؟

- نعم اتذكرها، ياخالى، وأذكر ايضا بوضوح شبه تام ان اغنيتى المفضلة كانت تلك التى تتحدث عن الوردة العاشقة.

- وأنا كذلك، كنت احبها كثيرا. اعذرينى الآن ايتها الحبيبة، فانى متعب للغاية وسأنام خلال لحظات. اشعر بارتياح بالغ، وخاصة من الناحية النفسية، ولا يهمنى بعد الوعد الذى قطعته على نفسك امامى... ما اذا كنت سأنام الى الأبد ام لا.

دقت الساعة الرابعة، ففتح باب الغرفة ودخلت مارجريت ثم لحقت بها مارى... التى كانت تحمل صينية الشاى. طلبت سيدة القصر من الخادمة الشابة وضع الصينية على الطاولة القريبة من النافذة، ثم تطلعت نحو ارمون وقطبت حاجبيها. امسكت بمعصمه لجس نبضه، وقالت:

- نبضه ضعيف للغاية. ماذا كان يفعل؟ يتحدث؟

- نعم. تحدث طويلا، وبانفعال وتأثر، عن وصيته. حاولت جاهدة ثنيه عن متابعة الكلام، فلم يحالفنى النجاح كثيرا.

- هل دخلت معه فى جدال حول الوصية؟ انه يشعر بارتباك شديد كلما تحدث عنها.

- لا، لم افعل ذلك اطلاقا، ولكنه اصر على معرفة السبب الذى يحول دون انجابى طفلا! قال ان حلمه لن يتحقق ما لم نرزق اطفالا.

- انه يتحدث عن هذا الموضوع باستمرار، ويتصور انه قادر على تنظيم حياتكما كما يريد أو يتمنى. مسكين ارمون... فهو طيب القلب ورقيق المشاعر الى حد كبير. هيا، يا عزيزتى لنشرب الشاى من المؤكد ان حديثه عن موضوع الأطفال قد ازعجك.

سألتها ايلاين بعد قليل عما اذا كانت تعرف شيئا عن الوصية، فأجابتها مارجريت بهدوء:

- لا، فهو يحب الحفاظ على سريتها... مع انه يتحدث عنها باستمرار. اعد هذه الوصية فى العام الماضى، وبعد فترة قصيرة جدا من زواجكما.

- هل يعرف بيار محتويات الوصية؟

- ربما، ولكنه لم يذكر لى اى شىء من هذا القبيل. اذا كان الأمر يزعجك أو يقلقك، فلماذا لا تسأليه بنفسك؟ لقد قمت اليوم بنصيبك من اعمال الخير، فلماذا لا تذهبين الآن وتتمتعين بما تبقى من ساعات النهار والسهرة!

الرابعة والنصف تماما... ربما لم يترك شامبورتن بعد. قالت:

- اعتقد اننى سأفعل ذلك هل سأراك اثناء العشاء؟

- لا، ليس هذه الليلة. سأتناول طعامى هنا. لأفسح لكما المجال للانفراد معا... للتعويض ولو جزئيا عن الأوقات الثمينة التى فقدتماها. هيا، اذهبى الآن.

غادرت ايلاين الغرفة مسرعة لتحول دون ذهابه الى انجولام، والا فلن يتمكنا من تناول العشاء على انفراد... ولن تسنح لها فرصة كهذه للتحدث معه وتوجيه عدد كبير من الأسئلة الهامة اليه. لن تدعه يذهب الى سولانج. ولكن... سيارة الرينو لم تعد هناك. قال لها جاك ان السيد بيار غادر شامبورتن قبل نصف ساعة تقريبا، وسألها عما اذا كانت تسمح له بتقديم الطعام فى وقت مبكر نوعا ما... لأنه سيذهب وزوجته الى انجولام ايضا لحضور مسرحية فكاهية. قالت له بنبرة يغلب عليها الحزن:

- بالتأكيد يا جاك. سأقوم الآن بنزهة فى الحديقة. ابلغنى عندما يكون الطعام جاهزا.

٥ ـ عقدة مستعصية

جلست ايلاين الى المائدة الطويلة، فى القاعة ذات السقف العالى، لتتناول طعامها ولكنه هذه المرة على انفراد. داخلها شعور بأنها صغيرة ووحيدة جدا فى تلك القاعة الضخمة، على الرغم من ان الطعام كالعادة كان شهيا للغاية وجاك يقف متأهبا لخدمتها والسهر على راحتها.

لماذا كل هذا التعب والإزعاج لأجل شخص واحد، بخاصة هى نفسها التى اعتادت على حياة عادية بعيدا عن التكلف والشكليات؟ ألم يكن بامكانها مثلا أن تعد طعامها بنفسها وتتناوله فى المطبخ، كى يتمكن جاك وزوجته من الذهاب فى وقت مبكر؟ ولكن وظيفتهما تقضى باعداد الطعام وتقديمه، وان لم يفعلا ذلك... فماذا سيفعلان؟

لا بأس احيانا بقليل من الرفاهية والعظمة، ولكن الوقت الآن ليس مناسبا أبدا. فهى تحس بوحدة قاتلة وتشعر بأنها رهينة... رهينة حلم خيالى لرجل عجوز، ورهينة زواج من رجل لا يحبها. هل هذا هو هدفها فى الحياة؟ هل هى حقا مسؤولة عن تحقيق حلم خالها ارمون؟

اخذ جاك صحنها الفارغ من امامها، فى الوقت الذى تحولت فيه أفكارها نحو بيار. هل يشعر هو ايضا بأنه رهينة، رهينة زواج من امرأة لا يحبها... رهينة طموحه وأحلامه؟ مسكين بيار... مسكينة ايلاين، فهما

واقعان فى شرك يصعب التخلص منه. أحست برغبة ملحة فى البكاء، ولكنها سمعت جاك يقول لها:

- سيدتى، وضعت لك صينية القهوة فى قاعة المكتبة.

- شكرا يا جاك يمكنك الذهاب وزوجتك الآن.

- كادت تضحك بصوت عال، بسبب اللهجة الرسمية التى طغت على كلامها. هكذا تتحدث سيدة القصر فى القصص والروايات... السيدة الحزينة التى تتناول طعام العشاء وحدها، لأن زوجها ذهب فى زيارة غامضة. فتح جاك الباب بهدوء وقال لها بتهذيب واضح:

- تصبحين على خير، ياسيدتى.

ابتسمت له، وقالت:

- تصبح على خير، يا جاك. اتمنى لكما مسرحية جيدة ووقتا ممتعا.

ألقت نفسها على مقعدها المفضل، وراحت تحدق بأبريق القهوة وتفكر بالليلة السابقة. كان بيار جالسا معها. صحيح انه لم يتحدث الا نادرا، ولكنه كان هنا... قربها. أما الآن فهو مع سولانج فى انجولام، بينما هى جالسة وحدها بائسة وتشعر بالحزن.

صبت فنجانا من القهوة وشربته دفعة واحدة، دون اضافة القطعتين المعتادتين من السكر... وذلك كى تساعدها المرارة الشديدة على الاستفاقة من ذهولها. اوه، يا لهذا الصمت الرهيب الذى يغلفها من كل جانب! تبا لهذه الوحدة المؤلمة التى تشكل عبئا ثقيلا على كاهلها، وتغرقها فى جو من الكآبة لم تعرف له مثيلا من قبل فى حياتها.

لم تعد قادرة على تحمل هذا الشعور الخانق بعد الآن، وأحست برغبة للتحدث مع ... مع أى انسان يمكنه تفهم وضعها ومساعدتها على التخفيف من آلامها. هذا هو الوقت المناسب للاتصال بجيرالد، لابلاغه عن اضطرارها للحصول على اجازة طويلة. صبت فنجانا آخر من القهوة ثم حملته الى المكتب الخشبى الأنيق، ووضعته قرب جهاز الهاتف، لتشربه أثناء انتظارها المكالمة مع لندن. اتصلت بمركز الهاتف، و أعطت احدى العاملات فيه رقم الهاتف فى شقة جيرالد.

اوصلها المركز بعد عدة دقائق بالرقم المطلوب، فوضعت فنجانها على الطاولة وانتظرت سماع صوت جيرالد على الطرف الآخر. ولكن عاملة الهاتف الفرنسية نصحتها بعد فترة معينة بمحاولة الاتصال فى وقت لاحق، لأن ما من احد على ما يبدو سيرد على المكالمة الحالية. جيرالد ايضا موجود خارج بيته! لما لا؟! فيوم غد هو عطلة اسبوعية وهذه الليلة مخصصة للسهرات! ربما ذهب لزيارة بعض الأصدقاء أو لحضور حفلة موسيقية، أو ربما يكون الآن مع امرأة اخرى... مثلما يفعل بيار!

حولت ايلاين افكارها فجأة، وبصورة متعمدة، عن المسار الذى انطلقت فيه... رأفة بقلبها وبمشاعرها. طلبت من موظفة الهاتف مرة أخرى رقما آخر فى لندن، وما هى الا دقائق قليلة حتى اجرى الاتصال بشقة ابن عمها تشارلز وسمعت بارتياح صوتا ناعما يقول:

- جينى كوبر.

- مرحبا، ياجينى. هل تعرفين من يتحدث معك؟

- اوه، ايلاين. كيف حالك ايتها الحبيبة وكيف حال الخال ارمون؟

- انا بخير، والحمد لله، ولكن الخال ارمون ليس على ما يرام. اعتقد انه لن يتمكن من مقاومة المرض والشيخوخة فترة طويلة.

- آسفة لسماع ذلك... فهو رجل طيب للغاية.

- جينى، لن اتمكن من العودة فى الوقت الراهن. وعدت بالبقاء حتى النهاية... وهى لن تطول كثيرا على ما اعتقد. أنت تتفهمين الوضع على حقيقته، أليس كذلك؟

- طبعا، ياحبيبتى. سأنقل رسالتك الى تشارلز، ليبلغهم فى المكتب انك لن تحضرى الى العمل صباح الاثنين.

- شكرا. حاولت الاتصال بجيرالد لابلاغه المعلومات ذاتها ولكنه لم يكن موجودا فى شقته.

- صحيح، فقد اخذ اجازة لبضعة ايام وذهب فى رحلة بحرية اعتقد انه اتخذ قراره هذا بصورة مفاجئة، وفى اللحظة الأخيرة. قال انه ربما يذهب إلى فرنسا، ولكنى غير متأكدة ما اذا كانت لوسى ستوافقه على هذا الرأى.

هل بدأ جيرالد يغازل لوسى، شقيقة جينى الصغرى، التى تكبرها بعام واحد؟ تمتمت ايلاين ببضع كلمات عادية تعليقا على كلام جينى، فمضت الأخرى الى القول:

- اتصور انهما قررا القيام بهذه الرحلة البحرية، لأن الطقس جميل للغاية كيف حال الطقس عندكم؟

- حار وجاف جدا.

- هذا الطقس بالذات يناسب كروم العنب... الأمر الذى يذكرنى ببيار. كيف حاله هذه الأيام؟

- بخير، شكرا.

- هل من أمل فى اعادة الأوضاع بينكما الى سابق عهدها؟

- اوه، جينى، لا يمكن بحث مثل هذا الموضوع الجدى أثناء مكالمة هاتفية!

- حسنا، يا حبيبتى، سنبحثه فى وقت لاحق إذن. كنت اتمنى فقط أن تتم المصالحة بينكما، وتتمكنا من العيش معا بوفاق ومحبة. على أى حال، ستكتبين لنا أو تتصلين بنا لاطلاعنا على التطورات الصحية لخالك أولا بأول. اتصور ان وفاته ستحدث ضجة كبيرة عندكم، بما انه ليس لديه أى وريث مباشر.

- سيحدث ذلك بالتأكيد. وداعا، يا جيني.

- وداعا، يا حبيبتى، واهتمى بنفسك.

عادت ايلاين الى مقعدها مجددا، وهى تشعر بوحدة اكثر ايلاما من قبل. جاك وزوجته فى طريقهما الآن لحضور مسرحية فكاهية... الخادمة الحلوة مارى موجودة مع صديقتها، أو على الأقل مع رفيقاتها. و جيرالد على ظهر سفينة سياحية فخمة، أو فى ناد على الساحل الفرنسى مع بعض الأصدقاء... ولوسى.

نعم، لقد لاحظت اكثر من مرة مدى اهتمام لوسى بجيرالد. لو لم تحضر الى شامبورتن، لكان جيرالد قد دعاها هى على الأرجح لمرافقته فى هذه الرحلة الرائعة. اوه، ليس هذا الأمر هاما على الاطلاق! فالشىء الذى يؤذيها كثيرا ويجرح شعورها، هو جلوسها هنا على انفراد فى حين يقضى بيار السهرة الاسبوعية، وبقية الليل، مع سولانج.

يا لسخرية الأقدار وظلمها! لو كانت تعيش هنا مع بيار وحده، وبالوفاق

التام الذى تتمناه من صميم قلبها، لما صار القصر موحشا الى هذه الدرجة المذهلة. لو كان الأمر ممكنا، لكان اولادهما يسرحون ويمرحون مع بعضهم ومع الأصدقاء الكثر... فيما تقيم هى وزوجها الحفلات والمآدب والسهرات.

وضعت يدها على رأسها وضغطت بقوة، لكى تتمكن ولو قليلا من تخفيف الصداع الحاد الذى بدأ يزعجها ويقلقها. اللعنة! ها هى تغرق مجددا فى بحر من العواطف الرقيقة، وتحاول التعلق بتمنيات ليست اكثر من مجرد أضغاث احلام. لن تستطيع الوفاء بوعدها لخالها ارمون، لأن الظروف الحالية لا تسمح لها بتاتا بالبقاء فى شامبورتن بعد وفاته والعيش مع بيار... كزوجة!

سمعت ساعة الحائط تدق تسع مرات، فاستفاقت من ذهولها. ستذهب الى غرفتها مباشرة، حتى فى هذا الوقت المبكر، فالقصر غارق فى صمت كئيب ورائحة المرض، وربما الموت، تعبق جدرانه وفى قاعاته وممراته.

استحمت للمرة الثانية وتعمدت البقاء فترة طويلة فى الماء الساخن، لتريح جسمها وأعصابها بعض الشىء. ارتدت ثياب النوم الرقيقة الشفافة، وسرحت شعرها وتعطرت... ثم ضحكت. لماذا هذا الاغراء كله، وهى ستنام وحدها على أى حال... فيما سينام الرجل الذى تحبه مع المرأة التى يحبها؟

اطفأت نور الغرفة بعصبية، وذهبت الى النافذة المفتوحة. ضوء القمر الساطع، صفاء السماء ودفء الجو، هدوء الليل، عطر الورود الفواح... وعصفور يغنى! ليلة صيف رائعة ومثالية... ليلة من الظلم والاجحاف تمضيتها على انفراد! أين العدل والانصاف؟ انها ليلة مثالية للحب ... للمحبين والعاشقين، وليست للعزلة والوحدة والألم!

تأوهت وقد اعتراها الحزن، وركضت بسرعة نحو سريرها. استلقت على

ظهرها وراحت تحدق بسقف الغرفة، علها تتمكن من طرد تلك الأفكار الحزينة والموجعة من رأسها. وفجأة، انهمرت الدموع بغزارة من عينيها وأخذت تبكي بمرارة لم تشعر بمثلها من قبل. سيساعدها البكاء على النوم... وسينقذ عواطفها المنهكة من براثن الانهيار.

سمعت صوت باب يغلق بهدوء، فلم تتحرك من مكانها أو ترفع رأسها عن الوسادة المبللة بدموعها. ربما نامت لحظة وحلمت... ربما سمعت ذلك الصوت في خيالها. استدارت نحو الباب... فشاهدت ظلا يتحرك في الغرفة! كادت تصرخ من شدة الفزع، ولكنها سيطرت على اعصابها قليلا وقالت بصوت مرتعش هامس:

- من هنا؟

- انا... بيار.

جلست في سريرها، وسألته بشيء من الحدة والانفعال:

- ماذا تفعل هنا؟

تحرك من مكانه قليلا، فلاحظت بهلع واستياء بالغين انه يبدل ثيابه. ثم قال لها ضاحكا:

- يمكنني توجيه السؤال ذاته اليك. ألا تذكرين انك عرضت على تبادل الغرفتين، نظرا لصغر حجم السرير الآخر؟ ذهبت الى غرفة الحضانة لاحضار بعض الأشياء، فوجدت السرير خاليا. لم تكوني في قاعة الجلوس أو في غرفة خالك، فتصورت انك ذهبت الى مكان ما. أتيت الى هذه الغرفة من أجل النوم.

- توقف لحظة، ثم مضى الى القول بلهجة ساخرة كعادته في مثل هذه الظروف:

- هل يعني وجودك هنا، انك غيرت من رأيك مجددا وقررت مشاركتي هذا السرير الكبير؟ هل تريدين انهاء ما بدأته صباح اليوم؟

- انا لم ابدأ اي شيء هنا هذا الصباح.

- حقا؟ تكون لدى انطباع آنذاك بأنك تريدينني، لولا دخول مارى المفاجيء. ولكن... ماذا تفعلين هنا اذن؟

صرخت احاسيسها بألم طالبة منها تحقيق ما كانت تتمناه قبل فترة وجيزة. شعرت بحرارة الرغبة تلهب عواطفها ومشاعرها، ولكن عقلها رفض بشدة الرضوخ والاستسلام، ستذهب الى الغرفة الأخرى... وتنام وحدها. بدأت تتحرك بهدوء نحو الجانب الآخر للسرير، لتتمكن من مغادرة الحجرة دون المجازفة بالاقتراب منه.

تحرك السرير قليلا، فتأكد لها انه جلس عليه. قالت له بتلعثم واضح:

- نسيت... انني تقدمت... بذلك الاقتراح. سأذهب على الفور... الى الغرفة الأخرى.

تسللت خارج السرير، واستدارت حوله لتذهب نحو الباب ولكن بيار اضاء النور المجاور له، وقفز باتجاهها في محاولة لاعتراض طريقها.

أبعدت نظراتها عن صدره الأسمر الذي اظهره ضوء القمر كقطعة من النحاس الأحمر، وقالت له بلهجة جافة:

- ارجوك، دعني اذهب.

- اريد أولا معرفة السبب الذى حملك على البكاء.

- كيف تعرف اننى بكيت؟

أمسك بذقنها ورفع وجهها نحوه، قائلا لها برقة:

- الوسادة مبللة، وعيناك محمرتان ومتورمتان. ماذا حدث، ايتها الحبيبة؟ هل بكيت لأنك شعرت بالوحدة؟ اهدأى الآن واطردى الأحزان من قلبك، فأنا هنا و...

أحست ايلاين فوراً بأنه لا يزال قادرا على اثارة عواطفها. يعرف... يعرف اللعين انه يتمكن ساعة يشاء، وحتى بعد خلافهما وفراقهما، من السيطرة عليها بصورة مذهلة... صرخت به، وهى تضربه بقوة على كتفيه:

- توقف، توقف! لا تلمسنى! لن اتحمل ذلك، وأنا اعرف انك كنت معها!

رفع رأسه ونظر اليها بعينين غاضبتين، وسألها:

- تعرفين مع من كنت؟ وكيف تعرفين، طالما اننى لم أخبرك؟

- لست بحاجة لمن يخبرنى. فعندما قلت لى انك ذاهب الى انجولام وقد تمضى الليلة هناك، علمت انك ستكون معها... مع سولانج. اوه، كيف تجرؤ على معانقتى فور عودتك من شقتها!

حدق بها فترة من الوقت، ثم قال لها بهدوء كالذى يسبق العاصفة:

- لم اكن مع سولانج.

- اذن كنت مع امرأة اخرى... آه!

صرخت ثم اختنق الصراخ فى حلقها من الألم، وهى ترفع يدها لتتحسس الوجنة التى تلقت صفعته قبل لحظة وجيزة. لم تكن صفعة قوية، ولكن الوضع

العاطفى الصعب الذى تمر فيه حاليا جعل تلك الضربة الخفيفة تبدو كلسع السياط. نظرت الى وجهه القاسى بعينين دامعتين، وسألته بصوت مرتجف:

- لماذا فعلت ذلك، يابيار؟

- لاننى تعبت كثيرا من اتهاماتك واهاناتك لى.

تركها فجأة وأسند ظهره الى الباب، فيما ظل يتأملها باستياء وانفعال. ثم عقد جبينه، وتابع القول مؤنبا:

- من اين تعلمت اهانة الناس بهذا الشكل؟ من لندن؟ من صديقاتك؟ أم من ذلك المدعو جيرالد، الذى كنت تكتبين له هذا الصباح؟

- اهانة؟

- نعم. فانت تهيننى بصفة دائمة فى تخيلاتك وتصوراتك. هل تعتقدين اننى رجل يجهل معنى الشرف والاستقامة والاعتزاز بالنفس؟ انا لست من اولئك الرجال الذين يقفزون من هذا السرير الى ذاك، ومن احضان امرأة الى اخرى. لم اكن مع أى امرأة اطلاقا. صحيح اننى حاولت الاتصال بسولانج لسؤالها عن امر ما، ولكنها لم تكن موجودة فى شقتها. أبلغنى الموظف المسؤول عن المبنى الذى تقيم فيه ، انها فى باريس. تناولت العشاء فى احد المطاعم وانتظرت خروج جاك وزوجته، لنعود معا فى سيارتى التى أعرتهما اياها. هكذا كان اتفاقنا قبل مغادرتى شامبورتن حوالى الرابعة، وهذا ما حصل بالضبط. أخذ نفسا عميقا، ثم تنهد فى أسى وتابع:

- هل ترين؟ لقد قدمت لك الآن ما لم اقدم مثله ابدا لأى امرأة اخرى... قدمت لك تقريراً مفصلا عن كافة تحركاتى لهذا اليوم... وعدت الى البيت. هل يمكنك المطالبة بأكثر من هذا، يا زوجتى الحبيبة؟

- ولكنك كنت ستبقى معها، لو انك وجدتها فى شقتها. ألم تفعل ذلك من قبل؟ ألم تمض معها بعض الوقت فى أواخر الخريف الماضى، عندما كان من المفترض انك ذاهب للقيام ببعض الأعمال؟

قال لها بلهجة حادة:

- هذا ما قالته لك سولانج، وأنت قبلت كلامها دونما اى استفسار أو...

- لا، لم يكن كلامها وحده فقط، بل شاهدت بنفسى اثباتا كافيا. ألم تترك قفازيك وقداحتك فى شقتها؟

حدق بها بعض الوقت وكأنه لم يصدق اذنيه، ثم ضحك وقال:

- تساءلت مرات عديدة عن المكان الذى نسيت فيه هذه الأشياء العزيزة على نفسى.

- مشى نحو منتصف الغرفة، حيث وقف لحظة ثم توجه الى النافذة تاركا لها الفرصة لفتح الباب والخروج منه دون أى اعتراض أو عائق. ولكنها احست فجأة بانها غير راغبة فى مغادرة الغرفة، واستدارت نحوه وهى لا تدرى ماذا تفعل أو تقول. قال لها:

- لو انك ابلغتنى هذا الأمر فى العام الماضى، لكان بامكانى ان اشرح لك سبب وجود القفازين والقداحة فى شقتها.

- اوه، طبعا. كنت ستوفر لى بالتأكيد بعض الأعذار الرقيقة المقنعة، كما فعلت هذه الليلة. وكنت ستتوقع منى قبولها دون تساؤلات أو احتجاجات، لأنه يجب على الزوجة حسب رأيك التصرف على هذا النحو. يجب على زوجتك قبول ايضاحاتك، حتى عندما تكون متأكدة من كذبك ونفاقك.

لم تصدق انها تمكنت اخيرا من البوح بما يدور فى خاطرها منذ بضعة اشهر، عوضا عن ابقاء هذه الأفكار تتفاعل داخل عقلها وقلبها وتأكلهما... كما تفعل الدودة عندما تهاجم تفاحة ناضجة.

استدار بيار نحوها بوحشية ظاهرة، فتراجعت الى الوراء خوفا من تعرضها لصفعة اخرى. لا حظ ذلك، فقال لها:

- لا، لن اصفعك. لن امنحك فرصة لاضافة القساوة والعنف الى قائمة اتهاماتك واهاناتك لى.

ثم هز رأسه، وأضاف قائلا:

- رباه، كيف وصلنا الى مثل هذه العقدة المستعصية! كل ما يمكننى قوله لك هو انني لم اكذب عليك قط عن سبب وجود القفازين والقداحة هناك، لأنك لم تعطنى فرصة للكذب... لأنك هربت.

تأملها بعض الوقت، وكأنه يدرس رد فعلها، ثم مضى الى القول:

- هل تسمحين الآن لى بأن اشرح لك السبب؟

احست ايلاين بأن للهجته المهذبة وقعا فى نفسها، أشد وأدهى من أى كلمات غاضبة ساخطة. أوحت تلك الجملة الهادئة بأنها لم تكن عادلة معه، عندما رفضت قبل تسعة اشهر الاستماع الى تفسيره وتبريره لهذه النقطة البالغة الأهمية... وانه يمنحها الآن شرفا لا تستحقه. خافت فجأة مما سيقوله لها، فتمتمت هامسة:

- الآن؟ وفى هذه الغرفة؟

- بالتأكيد. فهل يوجد مكان افضل من غرفتنا؟

حاولت التهرب من المواجهة المفزعة، فقالت بارتباك واضح:

- الوقت متأخر، وانا متعبة جدا.

- استلقى اذن على السرير، وأعدك بأن الشرح لن يطول كثيرا.

- ولكن...

لم يفسح لها المجال بمتابعة احتجاجها، اذ قفز نحوها بتلك السرعة التى ادهشتها دائما... وضع الغطاء عليها حتى ذقنها، ثم جلس قربها وسألها بصوت هادىء قاس:

- ألست مرتاحة وجاهزة الآن بما يكفى، لتسمعى كلامى؟

ردت عليه بصوت منخفض:

- نعم، سأسمع.

ابتسم بمكر، وقال لها بتلك اللهجة الهادئة المزعجة ذاتها:

- عظيم. انا شاكر لك، لأنك قررت أخيرا الاصغاء لما سأقوله. سنظل قادرين دائما على تصحيح الأمور وإعادة المياه الى مجاريها، مهما طالت فترة التأخير والارجاء. عليك أولا التفكير مليا، لأننى على وشك البدء بمحاولة جدية لانقاذ زواجنا... الذى يبدو انك مصممة على تحطيمه وتدميره.

هاهو يعود الى اللقاء اللوم عليها، ولديه بالتأكيد أسباب جوهرية تدفعه الى ذلك. سمعت ايلاين صوتا خبيثا فى داخلها، يوضح لها الغرض الكامن وراء هذه المحاولة. أليس من مصلحته المادية البحتة مثلا، أن يظل زواجهما قائما؟

- كما تعلمين، ذهبت فى اواخر الخريف الماضى لحضور احد المؤتمرات

الهامة. وعند انتهاء المؤتمر، توجهت الى انجولام لزيارة محترف فنى صغير وشراء احدى اللوحات المعروضة فيه كنت انوى تقديمها لك كهدية بمناسبة عيد ميلادك. حضرت سولانج الى المحترف أثناء وجودى فيه، فطلبت منها بالطبع ابداء رأيها الفنى فى اللوحة التى اخترتها. قالت لى عندئذ انها انهت لتوها لوحة عن السفن الشراعية الصغيرة فى المرفأ الصغير لبلدة لاروشيل. تذكرت على الفور مدى اعجابك بالسفن، عندما زرنا تلك البلدة خلال رحلة شهر العسل. ذهبت الى محترفها لالقاء نظرة على لوحتها، وأمضيت هناك بعض الوقت فى شرب القهوة وتبادل الأحاديث... وهذا أمر طبيعى للغاية، لأننا كنا فى فترة ما صديقين...

قاطعته ايلاين بلهجة جافة، قائلة:

- اكثر من صديقين... كنتما عاشقين.

عقد جبينه ونظر اليها شزرا، ثم أمسك بمعصمها وقال لها مهددا متوعدا بصوت هادىء:

- الا ترغبين فى سماع بقية كلامى؟

هزت رأسها بسرعة، وحاولت تخليص معصمها من قبضته. ولكن اصابعه القوية ضغطت على المعصم الضعيف، فيما كان يمضى الى القول:

- لا انكر اطلاقا اننى اقمت معها مرة علاقة عاطفية، ولكن ذلك حدث منذ سنوات عديدة. لم تدم تلك العلاقة طويلا، ولم تترك فى نفسى بتاتا أى اثر كبير أو صغير. اما سولانج، فكانت كما هى الآن... متحررة وطموحة وذات استقلالية ملحوظة. ذهبت الى باريس لتتعلم الرسم، ففقدنا كل اتصال. لم ارها او اسمع منها شيئا لمدة عشر سنوات كاملة، الى أن اتت الى

شامبورتن فى الخريف الماضى.

هز كتفيه، وكأن حديثه عن سولانج انتهى عند هذا الحد. ثم اضاف قائلا:

- لنعد الى قصة اللوحة الفنية. اعجبتنى، فاشتريتها واحضرتها الى البيت. واذا كنت لا تصدقين كلامى، فانظرى فى الجزء الثالث من هذه الخزانة. فهى لا تزال قابعة فى مكانها، بانتظار تقديمها لك... ربما فى عيد ميلادك المقبل، اذا كنت لا تزالين هنا فى ذلك الوقت. ومما لاشك فيه أننى نسيت القفازين والقدامة مع سولانج، نظرا لاستعجالي فى العودة الى البيت.

حامت بعض فراشات الليل حول النور، فمد بيار يده وأطفأه. غرقت الغرفة مرة اخرى فى ظلام لا ينيره إلا ضوء القمر الذى تتسلل اشعته الفضية بخجل عبر الأشجار وأغصانها. وفى الخارج، اهداها العصفور السعيد آخر اغنياته الرقيقة الحالمة... فحل صمت مرهق، لم يقطعه الا صوت بيار الهادىء:

- هل تصدقيننى؟

احست ايلاين بأنفاسه الدافئة تدغدغ وجنتيها، وبيده تتحرك فى رقة وحنان من معصمها حتى مرفقها. شعرت بتيار حار يندفع من ذراعها الى جميع انحاء جسمها. حذرها عقلها فورا من التمادى، فالرجل يستغل مجددا قدرته على اثارة مشاعرها لتحقيق اغراضه والوصول الى اهدافه. ألم يتبع نفس الاسلوب فى العام الماضى، لاقناعها بالزواج منه؟ الا يحاول الآن خداعها بالطريقة نفسها، لكى تقبل بالبقاء زوجة له؟ قالت له ببرودة.

- ولكن سولانج اخبرتنى انك لا تزال تحبها، وانك زرتها مرات عديدة منذ عودتها.

علق بيار على هذا الاتهام، بنبرة تحمل فى طياتها شيئا من المرارة:

- كانت تكذب. لماذا؟ الله اعلم.

- ليس من السهل على ابدا معرفة من منكما يقول الحقيقة. قالت لى شيئا، وأنت تقول الآن شيئا آخر. وعليه فقد تكون انت ايضا الذى تكذب.

امسك بكتفيها وراح يهزها بعنف بالغ، فيما كان الشرر يتطاير من عينيه. قال لها، وقد استشاط غضبا:

- لماذا اكذب عليك؟ اخبرينى لماذا؟

خافت مما قد يفعله فى ثورة الغضب العارمة هذه، فحاولت التخلص منه وهى تقول له بصوت ضعيف مرتجف:

- بيار، ارجوك، اتركنى.

- لا، لن تهربى منى مرة اخرى. ستقولين لى الآن رأيك بصراحة،عما ساجنيه من كذبى عليك بشأن سولانج.

هل يعلم انه كاد يحبس انفاسها بصورة كاملة؟ هل يعلم ايضا ان جسمها بدأ يتجاوب مع عواطفها ، حتى على الرغم من محاولاتها اليائسة للسيطرة عليه؟ همست بصوت متهدج متقطع:

- انت ... انت قلت لى بنفسك، انك تحاول الابقاء على زواجنا سليما معافي.

- وما العيب فى ذلك؟ اشرح لك موضوعا، كان بالامكان شرحه بسهولة ويسر فى العام الماضى... وبالتالى توفير مشاكل كنا بغنى عنها. اخبرك الحقيقة، فترفضين تصديقى. لماذا؟ لماذا؟

قالت له متهمة:

- لأنك تعرف ما تحتويه وصية خالى... لأنك لم تتزوجنى الا بعدما رشاك!

- يا للبلاهة! انت تعانين من الأوهام ايتها الحبيبة.

أغلقت عينيها بقوة لتمتنع عن التجاوب مع الدعوة التى توجهها اليها نظراته... وأنفاسه الحارة.

- مسكين قلبك، كيف يخفق بعصبية وانفعال! انت خائفة، ويحق لك ذلك. فأكثر من امرأة تعرضت للخنق، بسبب امور تقل اهمية عن موضوع عدم الثقة بالزوج. ولكننى اعرف الأسباب التى تجعلك تصرين على عدم تصديق كلامى... انت من يريد عذرا لانهاء زواجنا. هربت فى العام الماضى، عندما اكتشفت انك لا تحبين البقاء معى كزوجة. وجاءت اكاذيب سولانج عنى لتمنحك العذر المطلوب، لتعودى الى لندن... الى ذلك الرجل المدعو جيرالد. كنت تعرفينه قبلى، أليس كذلك؟

شعرت بالارتياح عندما نهض وجلس قربها. قالت له بلهجة حاولت تضمينها بعض ما تبقى فى نفسها من عنفوان:

- نعم. كنت اعرف جيرالد قبل لقائنا فى الصيف الماضى... فهو يعمل فى شركة ابن عمى تشارلز. بعد طلاقه من زوجته، بدأ يأتى الى آشلى مرات عديدة فى الاسبوع. دعانى... دعانى اكثر من مرة الى رحلات بحرية وركوب الخيل ، ومنافسته فى كرة المضرب، أو حضور حفلات موسيقية ومسرحيات.

- يبدو انه من طبقة بريطانية رفيعة ومثقفة، ويناسب ذوقك ومزاجك

تماما اكثر من مزارع فرنسى عادى. قارنت بيننا، ففاز على دون أى صعوبة. وكانت النتيجة الحتمية لذلك انك هجرتنى... آملة فى ارغامى على منحك الطلاق.

لاحظت ايلاين فورا انه استغل الفرصة مجددا وبدأ فى إلقاء اللوم عليها، عوضا عن الاقرار بذنبه والاعتذار عن الخطأ. قالت له بانفعال:

- لا، اوه لا، لم يكن هذا هو السبب. انا لم اتركك بسبب جيرالد.

- لماذا تركتنى اذن؟ لماذا ذهبت قبل التحدث الى أولا؟ بربك، يا ايلاين، الا يمكنك اعطاء سبب منطقى واحد لمغادرتك فرنسا قبل منحى فرصة لايضاح الأمور؟

أفلتت يدها من قبضته التى لم تعد قوية عليها، ثم رفعتها ويدها الأخرى الى وجهها لاخفاء معالم الألم والحزن والأسى. تذكرت الألم الذى شعرت به فى شقة سولانج... الألم الناتج عن سقوط الأوهام، وانهيار الأحلام، وتحطيم الثقة. صرحت باكية:

- لا اعرف. لا اقدر على تفسير مشاعرى.

قال لها هامسا:

- آه! كم انت بيضاء وصافية، كالقمر... وناصعة البياض وباردة، كالثلج.

- اتركنى... ارجوك.

لن تقوى على المقاومة. ضمها اليه، ثم قال لها بلهجة ماكرة خبيثة:

- لم تشعرى اذن بأى رغبة تجاه ذلك اللندنى المثقف، الا عندما كنت بعيدة عنى...

- لم اشعر تجاهه ابدا بأى رغبة! لااريده اطلاقا! اوه، لا اعرف ماذا اريد!

- اما أنا فأعرف ماذا اريد، يا حبيبتى.

سمعت ضحكة خفيفة تتردد متباهية، فتحول على الفور الشوق الى سخط والحنان الى غضب. احست بالاشمئزاز الشديد من افتراضه المتغطرس، بأنها ستذوب الآن بين يديه. صرخت به غاضبة، وهى تضرب كتفيه بيديها:

- اتركنى! اتركنى! كم اكرهك! سأذهب الى الغرفة الأخرى.

- لا، لن تذهبى. ستشعرين بالبرد والوحدة. انت الآن باردة، على الرغم من الدفء. جمدت الكراهية دمك، وحولك البغض الى قطعة من ثلج.

- بيار، ارجوك، لا...

توقف احتجاجها عند هذا الحد. انه على صواب فهى تكره البرودة والجفاف والوحدة. شعرت فى بداية الأمر بشىء من الخجل والتردد. ولم يعد يهمها فى تلك اللحظات السعيدة سوى وجودها معه كجزء لا يتجزأ منه... قلبا وروحا.

استيقظت ايلاين صباح اليوم التالى عندما احست بيد باردة تلامس كتفها. اخترقت الذكريات الحلوة لما حدث، فى الليلة الماضية، الغيوم الملبدة للنعاس الذى لا يزال يشل عقلها وتفكيرها. مع ذلك، أحست ببرودة وتأكد لها ان بيار لم يعد قربها.

- ايلاين، استيقظى.

ليس هذا الصوت صوته، ولا اليد الباردة التى لامست كتفها مرة اخرى يده. انها مارجريت! أمسكت بالغطاء، وهبت جالسة فى السرير. شاهدت مارجريت مرتدية كامل ثيابها، فسألتها بقلق ولهفة:

- اوه، أين بيار؟

- اضطررت لايقاظه قبل بعض الوقت، لكى يذهب لاحضار الاب مارتين.

اوه! استدعاء الكاهن فى مثل هذا الوقت المبكر، معناه تدهور جدى فى الوضع الصحى لخالها ارمون! سألتها ايلاين بصوت يشوبه الخوف والتردد:

- هل ساءت احوال الخال الى هذه الدرجة؟

- اتمنى لك العمر الطويل يا حبيبتى. توفى خالك بهدوء ودون عذاب، قبل بضع دقائق.

ثم وضعت يدها على رأس ايلاين، وأضافت بلهجة تكشف مدى السيطرة القوية التى تمارسها على اعصابها:

- لا تحزنى كثيرا، فهو لم يكن يريد لك ذلك. كانت الوفاة بالنسبة اليه راحة كبرى، وقد اتيت انت تماما فى الوقت المناسب لادخال بعض السعادة الى قلبه. هل من الممكن ان تنزلى بعد قليل لتناول فطور الصباح؟ انه يوم الاجازة الاسبوعية لمارى، ولا احب كذلك ارهاق جاك وزوجته بأمور كهذه. ساحتاج الى مساعدتك، ايتها الحبيبة، اذ علينا اعداد الترتيبات الخاصة بالجنازة.

- اوه، لا تقلقى يا خالتى، فسوف اساعدك.

- شكرا، يا حبيبتى. كنت اعرف ان بامكانى الاعتماد عليك عند الحاجة.

قفزت ايلاين من السرير، بمجرد خروج مارجريت من الغرفة، وتوجهت

على الفور الى الحمام. وبعد بضع دقائق، ارتدت ثيابا عادية ووقفت امام النافذة تسرح شعرها استعدادا للنزول الى قاعة الطعام. تذكرت فجأة انها ذهبت وبيار صباح يوم احد كهذا من العام الماضى، لجمع نوع من الفطر الذهبى اللون الشهى الطعم، وانها وعدته قبل عودتهما ظهرا... بالزواج منه.

وما هى الا لحظات قليلة، حتى جذبت انتباهها حركة خفيفة فى باحة القصر. شاهدت الكاهن وبيار يتوجهان نحو السيارة المتوقفة قرب البركة الصغيرة. انتفض قلبها بين اضلعها، بمجرد رؤيتها بيار، وارتفعت يدها بحركة لا شعورية إلى عنقها... لتتحسس المكان الذى اطبقت عليه اصابعه ليلة امس بقوة بالغة. سمعت صدى صوته يتردد فى رأسها... انت خائفة، انت خائفة! ارتعش جسمها كورقة فى مهب الريح، وهى تتذكر كل الأمور التى حدثت...

فتح بيار الباب الأمامى للكاهن الوقور، ثم استدار حول السيارة ونظر نحو باب البرج. حبست ايلاين انفاسها، متمنية لو انه يرفع نظره نحوها حتى تبتسم له وتحييه. ولكنه قال بضع كلمات لم تسمعها لشخص ما يقف داخل الباب، ثم جلس وراء المقود وانطلق بسيارته بعيدا عن القصر. احست بخيبة امل مريرة، تحولت خلال لحظات وجيزة الى سخط وغضب...

لم يجد بيار، مرة اخرى، أى صعوبة تذكر فى حملها على التجاوب معه بمثل تلك الطريقة المذهلة. تعمد فى الليلة الماضية أن يشعرها بأنه يحبها ويريدها... ويجعلها تنسى شكها وارتيابها. لماذا، اوه لماذا افسحت له هذا المجال؟ لماذا سمحت بحدوث الشىء الوحيد، الذى ارادت تجنبه اكثر من غيره؟ فجميع المشاكل العالقة لم تحل بعد...

صحيح انه شرح لها سبب وجود قفازيه وقداحته فى شقة سولانج،

ولكنها لا تزال تشك كثيرا فى الهدف الكامن وراء ذلك الايضاح أو التبرير. من المؤكد انه يحاول الابقاء على زواجهما قائما، لأن ذلك وحده يضمن له مشاركتها فى وراثة شامبورتن.

تناولت فطورها، وذهبت الى قاعة المكتبة لمقابلة مارجريت ومعرفة الخطوات التى يجب عليها القيام بها. اعطتها السيدة، التى ترملت للمرة الثانية، قائمة بأسماء الأشخاص الذين ينبغى ابلاغهم بوفاة ارمون... وقالت:

- ستكون جنازة عادية وبسيطة، حسب رغبته. اطلبى من الذين يريدون احضار اكاليل زهور، تحويل ثمنها الى جمعيات خيرية. يجب التأكد ايضا من الاتصال بالسيد اميل لوجيه المستشار القانونى لأرمون، بشأن الوصية... لأن جميع الأوراق والوثائق موجودة فى مكتبه.

وقفت مارجريت استعدادا لمغادرة المكتبة، ثم تنهدت وقالت:

- أتمنى الموت فى يوم، لا يكون حارا الى هذه الدرجة! امضت ايلاين ما يقرب من ثلاث ساعات متصلة للاتصال باثنى عشر شخصا فقط، وذلك لوجود معظمهم خارج بيوتهم. دقت مارجريت الباب، وقالت لها:

- تعالى لتناول الغذاء، ايتها العزيزة.

- اوه، نعم، شكرا. لم اكن اتصور ابدا مدى الصعوبة فى اجراء عدد محدود من المكالمات الهاتفية. سبعة اشخاص موجودون اما على الشواطىء واما فى حدائق عامة أو فى نواد للتسلية والترفيه. ولكن من يلومهم على ذلك، فهو يوم عطلة جميل رائع!

- اعتقد انك انت ايضا تتمنين القيام بنزهة فى الغابة القريبة. ربما

ستجدين فترة كافية لذلك، فى وقت ما من بعد ظهر اليوم.

لاحظت ايلاين لدى دخولها قاعة الطعام، ان المائدة معدة لشخصين فقط. تساءلت ضمنا، وللمرة العاشرة هذا الصباح، عن مكان وجود بيار. ماذا يفعل الآن، وقد أعاد الكاهن قبل ثلاث ساعات؟ الى اين ذهب، ومتى سيعود؟ سألت مارجريت بلهجة حاولت جاهدة اظهارها طبيعية وعادية:

- ألن يتناول بيار معنا طعام الغداء؟

- لا، فقد ذهب الى بلفين. ألم يخبرك ذلك؟

اوه! بلفين هى ممتلكات عائلة دوروشيه الواقعة على بعد خمسين كيلو مترا الى الشرق من شامبورتن... والقريبة الى حد ما من انجولام. انها تلك المنطقة الصغيرة المزدهرة، التى ورث بيار حصة والده منها وعمل فيها بعض الوقت مع وريث النصف الآخر... ابن عمه شارل... قبل توليه مهمة والده جان دوروشيه فى ادارة ممتلكات شامبورتن. ردت ايلاين على سؤال السيدة المسنة، بصوت هادىء يخفى وراءه انزعاجا وتوترا بالغين:

- لا، لم يخبرنى. هل قال لك متى سيعود؟

- صباح بعد غد، ان شاء الله. فهذا هو وقت العمل الجاد، كما تعلمين.

ثم رسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها، وأضافت قائلة:

- لم يكن ليذهب فى مثل هذه الظروف، لولا وجودك هنا اليوم لمساعدتى. اراحه كثيرا كونك معي، فاحس بانه يستطيع الذهاب للاهتمام بعمله.

قطبت ايلاين حاجبيها، فيما كان جاك المتزن الرصين يأخذ صحن الحساء الفارغ ويضع مكانه صحنا عليه شريحة كبيرة من اللحم المشوى على

الجمر، ومعها مجموعة مختارة من الخضار والمقبلات الشهية. ثمة لغز غامض يجب حله، ولكن... كيف ستتمكن من فعل ذلك دون الكشف عن جهلها التام بأعمال بيار؟ حللت الموضوع بسرعة، ثم قررت فى نهاية الأمر انتهاج اسلوب الصدق والصراحة. قالت بعفوية بريئة:

- لا افهم شيئا بعد، ياخالتى. فما هو عمل بيار فى بلفين، طالما ان ابن عمه شارل هو الذى يشرف على كل شىء هناك؟

- هكذا كانت الأمور فى السابق، يا عزيزتى. فكما تعلمين، لم يكن شارل ابدا مهتما بالحقول والبساتين... كما انه لم يدرس الزراعة أثناء وجوده فى الكلية، مثلما فعل بيار. وفى الربيع الماضى، تمكن بيار من شراء حصة ابن عمه فى بلفين... مستخدما المبلغ الذى توفر لديه خلال عمله هنا فى شامبورتن. انه الان المالك الوحيد لبلفين، وكان يعيش هناك طوال الأشهر الستة الماضية.

تذكرت ايلاين فجأة قول بيار لها، ان ثمة اشياء كثيرة لا تعرفها. قالت لمارجريت بصوت ضعيف:

- اوه، لم اكن اعلم ذلك. لم يخبرنى بيار شيئا عن هذا الموضوع على الاطلاق.

- ربما ظن انك لست مهتمة بهذا الأمر. عندما اقترحت عليه صباح اليوم أن يأخذك معه الى بلفين، قال لى ان مصالحتك معه كانت مجرد ادعاء لا يهدف الا الى ادخال بعض السرور الى قلب رجل يرقد على فراش الموت... وانه انتهت بوفاة ارمون. اشكرك من صميم قلبى، ايتها العزيزة، على مساندتى فى كذبتى البيضاء البريئة.

فأنا لست نادمة عليها، فقد ساعدته كثيرا على مغادرة هذه الدنيا بسلام وطمأنينة.

شعرت ايلاين بالألم الحاد ينخر عظمها ويجمد الدماء فى عروقها، ولكنها بذلت جهودا مضنية ومحاولات شبه يائسة بتقليد هدوء مارجريت وبرودة أعصابها. تظاهرت بأنها لا تزال تتمتع بذلك الطعام الشهى، على الرغم من المرارة المفاجئة التى تشعر بها فى فمها... وقلبها. ياللغباء! كم كانت سخيفة حمقاء، عندما نسيت اتفاقهما على تلك المصالحة الوهمية المزيفة! قالت لها بتهذيب مصطنع:

- كان هذا أقل ما يمكننى القيام به، تجاه خالى الحبيب.

ولكن بيار كان يتصرف امس، وكأنه لا يزال المسؤول الأول عن بساتين شامبورتن وكرومها ومعملها... أو هكذا تصورت. هزت رأسها ، وقالت:

- ألم يعد بيار يعمل فى خدمة... أعنى... فى شامبورتن؟

- لا، يا عزيزتى. فقد ترك الشركة منذ نهاية الشتاء الماضى، عندما انتهت فترة العمل المتفق عليها. حل محله فى هذه الوظيفة شاب اسمه جان بونيون. ألم تقابلى جان بعد؟

- لا، لم أقابله بعد.

- جان شاب لطيف وطيب جدا، وهو يعيش حاليا مع زوجته انيت وولديه فى البيت الصغير ذاته الذى عشنا نحن فيه فترة طويلة. لا يزال بيار بالطبع يحب شامبورتن... وفى كل مرة يأتى لزيارتى وتمضية بضعة ايام معى، يقوم بجولات فى كافة انحاء المنطقة كما كان يفعل فى السابق. اوه، تبدو عليك

مظاهر الدهشة والحيرة.

- نعم. لقد تحدثت قبل لحظات عن شركة، فماذا عنيت بذلك؟

- شركة سان فيران، طبعا، التى تملك الأراضى فى شامبورتن والمعمل القريب من انجولام.

- ولكن... ولكنى كنت اتصور ان الخال ارمون يملك شامبورتن!

- كشريك لا اكثر، ايتها الحبيبة. تأسست الشركة فى ذلك الوقت الذى حدثتك عنه، عندما بدأ مستوى الانتاج والنوعية فى التدهور... عندما ادرك ارمون عدم مقدرته على انقاذ شامبورتن بمفرده. اقيمت الشركة آنذاك، لادارة العمل من ألفه حتى يائه... ابتداء بالزرع وانتهاء بتسويق المنتجات. ويتولى رئاسة الشركة الآن رجل يدعى ميشال موريه وهو احد الأشخاص الذين طلبت منك الاتصال بهم.

- اوه، لم اعرف ذلك. ستعتقدين بالتأكيد اننى غبية جدا لعدم معرفتى كافة هذه الأمور.

- لا، يا عزيزتى، فأنت صغيرة السن وحديثة العهد بعالم التجارة ومشاكلها وتعقيداتها. ويقع الخطأ الأساسى فى هذا المجال على ارمون، رحمه الله، لأنه لم يطلعك على أى شىء من هذه الأمور الهامة. كان يفضل التحدث اليك عن الفن والموسيقى، واعادة صياغة قصص الحب والفروسية حسب مزاجه ووفقا لما يشتهيه. لم يهتم كثيرا بالأرض وبالتجارة، وخصص كل وقته وماله للقصر الذى احبه فوق كل شىء. وعليه، فلن استغرب اطلاقا اذا تبين لنا من وصيته انه مدين للشركة بمبالغ طائلة... وان ما من احد سيرث شيئا يذكر . هل تمكنت من الاتصال بمحاميه، اميل لوجيه؟

- لا، لم اتمكن بعد. ولكن... اذا كان الوضع المادى على هذا النحو السىء، فماذا أنت فاعلة ياخالتى مارجريت؟

- لدى خطة كاملة لمجابهة هذا الاحتمال، يا عزيزتى. سأعود الى لاروشيل، حيث ولدت وترعرعت. اشتقت كثيرا الى البحر، بسبب السنوات الطويلة التى عشتها بعيدة عنه. انا لا اتوقع شيئا على الاطلاق من وصية ارمون، ولكن ذلك لا يقلقنى. فقد ترك لى زوجى الأول جان دوروشيه ما يكفينى، وسأشتري شقة فى لاروشيل تشرف على البحر... وعلى السفن الشراعية الصغيرة والكبيرة التى تدخل المرفأ القديم وتخرج منه. وسأكون ايضا قرب ابنتى الكبرى، جانيت. أمل كثيرا فى أن تتمكنى، يا ايلاين، من زيارتى هناك بين الحين والآخر.

انها... تأمل فقط، ولا تتوقع كأى حماة زيارة كنتها لها! كما انها لم تشمل بيار فى تلك الزيارة! شكرتها ايلاين بتهذيب، ووعدتها بتحقيق ذلك. استأذنتها مارجريت بالذهاب الى النوم، نظرا للارهاق الشديد الذى تحس به، ثم طلبت منها برقة ونعومة استئناف الاتصالات الهاتفية. وعدتها ايلاين خيرا، فهزت رأسها وقالت:

- حسنا، ولكنى لا اريد ان ترهقى نفسك كثيرا. انت متعبة وشاحبة الوجه.

٦ - رحلة إلى بلفين

أدركت ايلاين بعد ثلاث مكالمات هاتفية فقط، انها لا تعرف ما اذا كان هؤلاء الاشخاص سيحضرون الجنازة ام لا. فهى شاردة الذهن ومشتتة، وغير قادرة على التركيز والاصغاء بصورة طبيعية.

كان عقلها مليئا بالمعلومات المذهلة التى زودتها بها مارجريت اثناء الغداء، فشعرت برغبة قوية فى الاختلاء بنفسها فى مكان هادىء... لتحلل بتمعن وروية معنى هذه الامور ومدى تأثيرها على حياتها ومستقبلها. قفزت من كرسيها باندفاعها المعتاد، وخرجت الى الشرفة المطلة على الحديقة والغابة والنهر. هل تبقى هنا، ام تذهب الى مكان آخر؟ لماذا لا تذهب الى الغابة... فسكونها ممتع، وجمال طبيعتها أخاذ، وبرودة جوها رائعة!

جلست فى الظل تصغى الى ضجيج الصمت، وتفكر بما قاله لها بيار. "ثمة اشياء كثيرة لا تعرفينها، يا ايلاين! وعوضا عن الاستفسار عن الأمور التى تجهلينها تسارعين الى تصور افتراضات مجنونة ثم تقنعين نفسك بانك اكتشفت الحقيقة. لم تهتمى بما فيه الكفاية، وهذا هو سبب احجامك عن توجيه الاسئلة...".

راحت كلماته القاسية وانتقاداته الجارحة تتردد فى رأسها، كضربات المطارق ووخز الابر. صحيح انها لم تهتم بشكل كاف، ولكن ليس بالطريقة

التى اوحى بها. لم تكن مهتمة بعمله، بماله، بطموحاته او حتى بموضوع الارث منذ البداية. لم تكن راغبة فى معرفة اى شىء عن هذه الأمور، ولم تكن تعيرها اى اهتمام على الاطلاق. وعندما سمعت أقوال سولانج و شاهدت الاثبات بأم العين، قررت فورا الابتعاد عنه نهائيا بدلا من مواجهته وتوجيه اسئلة لن تؤدى الا الى صب الزيت على النار.

ربما تصرفت كفتاة مراهقة، وليس كشابة ناضجة راشدة. ولكنها اقدمت على تلك الخطوة البالغة الاهمية، عندما شعرت أن احترامها الذاتى قد تعرض للتحقير والإذلال. رفضت منحه فرصة لتبرير مواقفه، خوفا على احلام الحب والسعادة التى نسجت خيوطها حول علاقتهما... وخشية تأكدها من احتمال انها ليست حقا المرأة الوحيدة فى حياته.

احست فجأة بالدماء الحارة تندفع بسرعة إلى رأسها ووجنتيها. فقد مر بذاكرتها الليلة الفائتة وتفاصيلها، وقارنتها بما جرى فى هذه الغابة بالذات قبل عام من الآن. علمت آنذاك، وللمرة الاولى فى حياتها، معنى الاثارة الحقيقية. . . ولكنه اذهلها بابتعاده عنها فجأة، وبقوله لها:

- لا، لا اقدر.

- هل تعنى اننى... لا اعجبك... بما فيه الكفاية؟

ادار وجهه نحوها وتأملها طويلا، قبل ان يضع مرفقه على الارض قربها ويقول:

- لا، لا اعنى ذلك ابدا. ولكنى لا اقدر ما لم نتزوج.

لم تصدق اذنيها! فلقد تمنت دائما من صميم قلبها ان يأتى يوم، يهتم بها رجل ما الى درجة كافية، بحيث يطلبها للزواج قبل اى شىء آخر. ولكنها لم تكن لتحلم ابدا، بأن بيار سيكون هذا الرجل. فهو أول رجل أحبته، وأول من فتح عينيها على روعة الحب وجماله.

حدقت به لحظات طويلة ثم غمرتها سعادة فائقة وبهجة عارمة.

سألته بلهفة وارتباك:

- حقا، يا بيار؟

- حقا يا ايلاين. لماذا تشككين فى كلامى؟

- لأننى اعرف انه كان لديك العديد من... الصديقات.

- هل تعرفين ذلك حقا؟ ومن أخبرك؟

- شارلوت سوريل!

- هل تبحثين حياتى العاطفية مع خادمة القصر؟

- لا، ولكنها تحب التحدث عنك كثيرا... لأنها مغرمة بك. انت رجل وسيم جدا، يا صديقى العزيز، ولست بحاجة لمن يخبرك ذلك. كما انك تتمتع بخصائص رائعة تجذب النساء اليك، بصورة مذهلة.

- وكذلك الخادمات المراهقات، على ما يبدو.

ثم ابتسم، واضاف قائلا:

- اخبرينى، لماذا تجعلك معرفتك هذه الحقيقة، عن كثرة الصديقات فى السابق، تشككين فى رغبتى بالزواج منك؟

احمر وجهها خجلا، وقالت بعد تردد:

- انا لست جميلة جدا كما يبدو... اضافة إلى انه ليست لدى أى خبرة حقيقية... اعنى، اننى لم ارتبط... بأى رجل من قبل.

اخفت وجهها فجأة تحت ذراعه، واضافت قائلة بصوت هامس:

لا. لا اعرف الكثير... عن الحب و...

ظل صامتا بعض الوقت، وهو يلعب بخصلات شعرها الطويل وانحنى فوقها، قائلا برقة ونعومة:

- انت بالنسبة الى شابة جميلة للغاية، وانا معجب بشعرك الذهبى وعينيك السوداوين وبشرتك البيضاء الرائعة.

ثم هز كتفيه، ومضى الى القول:

- اما بشأن الأمور الاخرى، فانا سعيد حقا لأنك لست خبيرة فى العلاقات العاطفية. وربما يهمك ان تعرفى، يا صغيرتى، ان ما من امرأة عرفتها يمكنها منافستك فى أى مضمار... وهذا هو سبب اقدامى على طلب يدك. ولكن... لماذا تبكين، يا حبيبتى؟ هل آذيتك بشكل أو بآخر؟

- لا، اوه... لا ابدا. هذه فقط دموع الفرح والسعادة.

أحست بارتعاش جميل، وهو يجفف الدموع التى انهمرت على خديها. وبعد دقائق طويلة، ساعدها على الوقوف وقال لها... فيما انطلقا عائدين الى القصر بأيد متشابكة:

- حسنا. اذا كنت انت سعيدة، فانا سعيد كذلك.

تذكرت ايلاين، وهى سابحة فى بحر الاحلام والذكريات، مدى سرور ارمون لدى سماعه نبأ قرارهما بالزواج... والتحفظ الذى ابدته مارجريت فى البداية. واصر خالها آنذاك على زواج تقليدى بدلا من الزواج المدنى، مع انه لم يكن يهمها ابدا كيف واين تتزوج... لم تكن مهتمة الا بشىء واحد ألا وهو وجودها مع بيار، وبمعرفتها انه لها. وادركت الآن ان حبها له كان تملكا كاملا... وانانيا... اعمى عينيها عما يجرى حولها. ولم تلاحظ، الا فى حديثها مع سولانج، ان بيار لم يقل لها ابدا انه يحبها!

لم يقل لها ذلك ايضا فى الليلة الماضية! فالزواج بالنسبة اليه مصلحة او ترتيبات معينة، تمنحه بعض الحقوق التى لا يتردد اطلاقا فى المطالبة بها ساعة تسنح له الفرصة... تماما كما حدث فى الليلة الفائتة.

ولكنها اعترفت لنفسها بأنها هى ايضا ارادت وتاقت الى قربه، وبأن الامس أدخل الى قلبها ذات السعادة المفرحة التى شعرت بها عندما تزوجا. ومع ذلك، لا تزال الشكوك تراودها بانه يتعمد استغلال هذه العلاقة لابعاد الشبهات عنه وعن تصرفاته. مسكينة انت، يا ايلاين! كنت تشعرين بالوحدة الباردة، فافسحت له المجال... واقنعت نفسك بأن المصالحة حقيقية وليست مجرد ادعاء.

اوه، كم بدت مختلفة تماما عندما تركت لندن صباح أول أمس! تصورت أنها لديها قوة ارادة كافية، لمقاومة هيمنته وتسلطه عليها. ولكنها كانت تدرك ضمنا مدى خطورة اى لقاء معه، ولهذا السبب وحده ظلت بعيدة عنه طوال تسعة اشهر. يا له من رجل شرير، لا تستطيع التخلص منه! الم يقل لها فى أول لقاء بينهما بعد ذلك الفراق الطويل، ان شرير تعرفه افضل من آخر تجهله؟ أليس هذا الكلام ايحاء واضحا، بأن الابقاء على زواجهما أفضل بالنسبة لها من الطلاق والزواج من رجل آخر؟

لا، لا تريد حقا الزواج من شخص آخر! فحتى جيرالد، المرشح الأفضل لمنصب الزوج الثانى فى حال حدوث الطلاق، لا يعنى لها أى شىء بالمقارنة مع بيار. لم تتضايق ابدا عندما سمعت ان جيرالد اخذ لوسى معه فى رحلة بحرية، مع ما قد تؤدى اليه مثل هذه الرحلات. ولكنها تشعر بغيرة مؤذية قاتلة، كما هو حالها الآن، اذا أقام بيار علاقة مع اى امرأة اخرى... وهذه

هى مشكلتها الكبرى.

هل يمكنها البقاء زوجة له، وهى تعرف بصورة شبه مؤكدة ان امرأة مثل سولانج ستكون بصفة دائمة موجودة فى مكان ما من حياته؟ هل يمكنها ذلك، وهى تعلم علم اليقين بأنه ليس على استعداد ابدا للكشف لها عن كل شىء يتعلق به؟ لم يتزوجها بدافع الحب، ولكن نتيجة رشوة خالها... الذى اراد تحقيق حلمه المجنون بولادة طفل يجمع بين دماء سان فيران وحبيبته مارجريت دوروشيه!

طفل! توقفت ايلاين فجأة فى طريق عودتها الى القصر، ووضعت يدها على بطنها... وكأنها توقعت اكتشاف انتفاخ مفاجىء وفورى! تسارعت ضربات قلبها وجف اللعاب فى فمها، فيما خيم عليها شعور غريب من الهلع والرعب.

لم يكن لديها وقت كاف للتفكير بالنتائج المحتملة والمضاعفات المرتقبة! تصرفا كحبيبين، دونما اى تفكير بما يمكن أن يحدث من تطورات. هل سيتحقق اذن حلم ارمون؟ هل ستفى بوعدها لخالها، رغما عن ارادتها ورغبتها؟ هل ستلد فى الربيع المقبل؟

توترت اعصابها كثيرا، بحيث لم تعد قادرة على تحمل الضغوطات النفسية والعاطفية... فأخذت تركض نحو القصر باقصى سرعتها. صعدت الى الشرفة ببطء، وهى تحاول التقاط انفاسها وتجفيف العرق المتصبب من جبينها. سمعت رنين الهاتف فى قاعة المكتبة فاندفعت نحو تلك الحجرة القريبة بأقصى سرعة. رفعت السماعة، وقالت لاهثة من شدة التعب:

- نعم!

- اسعدت صباحا، يا سيدة دوروشيه. اميل لوجيه هنا. ارجو اولا تقبل

تعازى الحارة بوفاة السيد سان فيران.

شكرته ايلاين، فمضى الى القول:

- اتصور انك حاولت الاتصال بى فى وقت سابق، أليس كذلك؟

- نعم. اقترحت حماتى، السيدة سان فيران، ان اتصل بك لأنك المسؤول قانونيا عن وصية خالى.

- هذا صحيح، يا سيدتى. امامى الآن نسخة من الوصية... ومع اننى لست معتادا اطلاقا على قراءة محتويات وصية الا وجها لوجه، ولكنى اعتقد انك تودين معرفة ما اذا كانت تنص على اى تدابير معينة بالنسبة للجنازة.

ارتبكت ايلاين، وقالت له متلعثمة:

- اوه ... آه نعم... ارجوك.

- يفترض بى التوجه الى شامبورتن للقيام بهذه المهمة. ولكن، بما ان اليوم عطلة اسبوعية كما تعرفين وعندنا ضيوف سيمضون معنا نهاية الاسبوع بكاملها، فسوف استميحك عذرا لتأجيل حضورى حتى صباح غد. آمل فى مقابلتكم. جميعا... انت والسيدة سان فيران وزوجك. وكافة العاملين فى القصر ، لأن الوصية تنص على ذلك. وقد طلب السيد سان فيران ان يوارى جثمانه فى مدفن العائلة، فى مقبرة سان اوغسطين. كما طلب عدم احضار اكاليل زهور، وتحويل ثمنها عوضا عن ذلك الى جمعيات خيرية. هذا كل شىء، بالنسبة للجنازة. ما هو افضل وقت لكم، غدا صباحا، كى احضر مع الاوراق والوثائق؟

- الحادية عشرة؟

- عظيم! على اى حال، لن يستغرق اللقاء طويلا لأن شركة شامبورتن تملك الآن كل شيء تقريبا... عفوا؟ هل قلت شيئا، يا سيدتى؟

- سألتك عما اذا كانت الشركة تملك القصر ايضا؟

- نعم، مع ان معرفة هذا الامر محصورة فى نطاق ضيق جدا. لم يكن السيد سان فيران يرغب فى الكشف عن مدى تدهور اوضاعه المادية، وعن انه لم يعد قادرا حتى على الاحتفاظ بملكية القصر. سمحت له الشركة بالاقامة فى القصر للاهتمام به والمحافظة عليه، لأنه بالطبع مثال رائع على الهندسة المعمارية القديمة ذات الطابع التاريخى والحضارى. ولكن ارتباك خال والدك ومرضه فى الآونة الاخيرة، جعلاه يظن انه لا يزال مالك القصر. لقد اصر على تحويل القصر الى اولادكما... انت والسيد دوروشيه.

- هل تقصد ان هذا البند لم يضف الى الوصية؟

- تماما، يا سيدتى. لم يكن هذا البند ضروريا اطلاقا، لأنه فقد ملكية القصر قبل ذلك بفترة من الزمن. لم يترك خالك شيئا، يا سيدتى، باستثناء بعض الاسهم القليلة فى الشركة وقطع معينة من الاثاث واشياء اخرى مماثلة. سوف تطلعين على كافة التفاصيل غدا، باذن الله. الى اللقاء، يا سيدة دوروشيه.

- الى اللقاء.

وضعت ايلاين سماعة الهاتف الى مكانها، ثم اخفت وجهها بين يديها وتذكرت كلام مارجريت عن الوضع المالى المتدهور لارمون. احست فجأة برغبة قوية فى التحدث مع بيار، ففتحت الكتيب الصغير الذى يضم اسماء الاقرباء والاصدقاء وارقام الهاتف فى منازلهم او مكاتبهم... ولكنها لم تجد

أى رقم لبلفين. بحثت فى دليل الهاتف المحلى عن اسم عائلة دوروشيه، فلم تجد بلفين ايضا بين العناوين المسجلة فيه. من ستسأل؟ الأفضل لها الا تزعج مارجريت... اوه، ستحصل على المعلومات المطلوبة من جاك.

كان مستلقيا على مقعد خشبى قديم فى باحة القصر، يغط فى نوم عميق. نادته باسمه. فرفع الصحيفة التى كان يغطى بها وجهه وعينيه وهب واقفا على الفور... ثم قال:

- نعم يا سيدتى.

- هل يمكنك اعطائى رقم الهاتف فى بلفين؟

- آسف، يا سيدتى، فلا يوجد اى هاتف هناك... مع ان السيد بيار يحاول منذ بعض الوقت تأمين خط خاص به.

- اوه، يا لها من مشكلة مزعجة! انا مضطرة جدا للاتصال به، لأن المحامى لوجيه يتوقع رؤيته هنا فى الحادية عشرة من صباح غد.

- هل لى ان اقترح عليك ياسيدتى، التوجه الى بلفين بسيارة السيد سان فيران؟ مفاتيحها موجودة فى المطبخ.

- ولكنى... لا اعرف الطريق الى بلفين.

- اتبعى الطريق المؤدية الى القرية، ثم انحرفى يسارا قبل وصولك الى الجسر، وانطلقى على الطريق الترابية المحاذية للنهر. ستكون رحلة شاقة الى حد ما، ولكنها افضل بكثير من التوجه الى الطريق الرئيسية ثم التحول جنوبا مرة اخرى، ثم تصلين بعد بضعة كيلومترات الى طريق ضيقة تبعدك عن النهر، وتؤدى بك الى بلفين عبر قرية بليك.

– وكيف سأستطيع معرفة بلفين؟

– ستجدين بيتا جميلا ابيض الجدران، وسط مجموعة من اشجار السرو تبعد قليلا عن الطريق. واعتقد ان اسم دوروشيه مسجل على علبة البريد، الموضوعة فى بداية الممر المؤدى الى البيت. هل احضر لك المفاتيح، يا سيدتى؟

– نعم، شكرا.

استقلت ايلاين سيارة البيجو الزرقاء ذاتها، التى استخدمتها العام الماضى فى التوجه الى بواتيه، واحست مرة اخرى كأنها تفر هاربة. ولكن ثمة فرقا شاسعا بين المرتين والشعورين... فهى تهرب الآن الى زوجها، وليس منه! سوف تتعرف أخيرا الى بيته... والى طريقة حياته، عندما يكون بعيدا عنها وعن امه. وقد تتمكن ايضا من التحدث معه هذه المرة بأسلوب مختلف تماما، بعد اكتشافها انه ليس طامعا بقصر او ممتلكات. من يدرى، فلربما ستسمع اجابات كافية ووافية عن بعض الاسئلة التى تقض مضجعها وترهق اعصابها!

اذا كان يعلم بانه لن يرث معها سوى حصة ضئيلة تافهة فى شركة سان فيران، فلماذا تزوجها منذ البداية؟ كيف قالت لها سولانج اذن انه تزوجها سعيا وراء تحسين اوضاعه المادية، طالما انه مطلع على سوء الاحوال المالية لخالها ارمون؟ وهل يطمع ببعض المفروشات القليلة، هو الذى تمكن من شراء نصف ممتلكاته واراضيه الحالية بعرق جبينه ومن ماله الخاص؟

ولكن، لماذا تصدق سولانج بعد الآن؟ الم تثبت لها الوقائع والمعلومات، التى اطلعت عليها منذ وصولها اول امس، عدم صحة تلك المزاعم جميعها؟ اخطأت سولانج فى حديثها عن مارجريت... وعن ملكية شامبورتن... وربما ايضا عن سبب زواج بيار منها.

أدركت ايلاين فجأة انها اصبحت على مقربة من الجسر، فأوقفت السيارة بسرعة ونظرت حولها بحثا عن الطريق الترابية. اوه، لقد تجاوزتها ببضعة امتار! عادت تلك المسافة القصيرة الى الوراء، ثم تحولت الى تلك الطريق الضيقة التى لا تكاد تتسع لاكثر من سيارة واحدة. وصلت بعد دقائق معدودة الى تقاطع الطرق الذى اخبرها عنه جاك، فانطلقت على تلك الطريق المستقيمة بين حقول القمح وكروم العنب. وفور تجاوزها قرية بليك الصغيرة، خففت ايلاين من سرعة السيارة واخذت عيناها تبحثان بشوق عن علبة بريد تحمل اسم دوروشيه.

اوه! ما هذه الاصوات الغريبة التى تسمعها، وماذا حدث للسيارة كى تهتز بها على هذا النحو المزعج وكأنها تحتضر، توقفت... قفزت مترين الى الامام. وتوقفت مرة اخرى، فيما اصبح صوت المحرك اشبه بالحشرجة. تطلعت بسرعة الى مؤشر الوقود، فتبين لها فورا مدى الجفاف الذى يعاني منه المحرك. استخدمت ما تبقى من قطرات قليلة فى الانابيب، التى تنقل الوقود من الخزان الى المحرك، ووضعت السيارة الى جانب الطريق.

ضحكت بصوت عال، وهى تضع المفاتيح فى جيبها وتهم بالخروج من السيارة. لماذا التسرع، يا ايلاين؟ ولماذا لم تتأكدى قبل انطلاقك من شامبورتن، من ان كمية الوقود كافية لمثل هذه الرحلة الطويلة؟ ألا يقال ان فى العجلة ندامة، وفى التأنى السلامة؟ لا شك فى ان اقرب محطة للوقود لن تكون الا بليك، التى تبعد عنها الآن اكثر من كيلو مترين. ولكن بلفين ستكون اقرب اليها من بليك، وعليه، فالتوجه اليها سيرا أفضل من العودة الى تلك القرية الصغيرة و إضاعة المزيد من الوقت.

لم تشعر ايلاين بالتبدل المفاجىء الذى حدث فى الطقس، الا بعدما خرجت من السيارة واقفلت بابها. تحولت سحب الصيف الرمادية الخفيفة، التى شاهدتها قبل بعض الوقت، الى غيوم كثيفة سوداء تحجب نور الشمس عن معظم تلك المنطقة. آه من هذا الحر الشديد، ومن هذه الرطوبة المرهقة! لا بأس، قررت المشى ببطء كيلا ترهق نفسها كثيرا... وستحاول الاحتماء قدر الامكان بظلال الاشجار القريبة. وفجأة... لمع البرق وهدر الرعد، فبدا وكأن عاصفة هوجاء ستهب بين لحظة واخرى.

اسرعت الخطى باتجاه بلفين، على أمل الوصول اليها قبل هبوب العاصفة. وما ان وصلت الى بداية الممر وشاهدت علبة البريد الخشبية الخضراء التى تحمل اسم دوروشيه، حتى ارعدت السماء مرة اخرى... وانهمر المطر بشكل رهيب. ركضت باتجاه البيت الأبيض، الذى بدا امامها كقلعة صغيرة على بعد بضع مئات من الامتار. كانت الطريق اليه صعودا، فاضطرت ايلاين للتوقف عن الركض مرات عديدة بهدف التقاط انفاسها. وفى اثناء ذلك، تواصل البرق والرعد وهطول الامطار الغزيرة... وكأنما السماء تعاقبها بأن تصب جام غضبها عليها.

ولما اقتربت من البيت وشاهدت سيارة السيتروين، أحست ببعض الارتياح. سيكون بيار الآن اما فى الداخل، او فى مكان ما من ارضه يتفقد كرومه وبساتينه. وعندما شاهدت الباحة الخارجية للبيت التى حولتها المياه الغزيرة الى بركة كبيرة، تذكرت انها تبدو الآن وكأنها خارجة من بحيرة غطست فيها بكامل ثيابها. دقت على الباب الخشبى وانتظرت بضع لحظات، ثم دقت مرة أخرى... ولكن دون جدوى. وجدت الباب مفتوحا فدخلت، وهى تنادى بصوت عال الى حد ما:

- بيار! بيار!

لم يجبها أحد، ولكنها سمعت صوت ماء يتدفق فى مكان ما من الجهة اليمنى. اقتربت من مصدر الصوت بخطى بطيئة حذرة، فوصلت الى باب مفتوح يوصل الى غرفة كبيرة لا بد وانها المطبخ. سقفه من خشب السنديان، وجدرانه الحجرية مطلية بلون بنى خفيف للغاية، وفى احدى زواياه فرن كبير مبنى من القرميد الاحمر الداكن... فيما يحتل مقعدان خشبيان جانبى الزاوية المقابلة.

ورأت ايلاين على الطاولة الخشبية المستطيلة بقايا وجبة طعام لشخص واحد... بما فى ذلك رغيف خبز، وقطعتان من الجبنة الصفراء، وصحن لا تزال عليه آثار اللحم المقلى، واشلاء كوب مبعثرة هنا وهناك. رفعت نظرها الذى تسمر بعض الوقت على قطع الزجاج المتناثرة، وتطلعت نحو النافذة حيث يأتى صوت الماء المتدفق بقوة. اوه! رأت بيار، الذى لم يشعر بدخولها، واقفا قرب مغسلة المطبخ وواضعا يده تحت المياه المندفعة من الحنفية... كان يشتم بصوت منخفض. ركضت نحوه، وهى تسأله بلهفة:

- بيار! ماذا فعلت بنفسك؟

قفز فى مكانه كمن أصيب بعيار نارى، وادار وجهه نحوها محدقا بذهول واستغراب... فيما ابقى يده الجريحة تحت الماء. سألها بحدة:

- كيف استطعت الوصول الى هنا؟

ثم وضع يده الاخرى على جبينه، واضاف بلهجة ساخرة:

- رباه! لا تقولى لى انى بدأت ارى اشياء غير موجودة! هل انت هنا حقا، ام ان الجرح اعمى بصيرتى وشل تفكيرى وقدرتى على استيعاب الأمور؟

- لا، انت لست واهما على الاطلاق. فانا هنا، وقد اتيت بسيارة البيجو حتى منتصف الطريق تقريبا بين بليك وبلفين... ثم قطعت بقية المسافة سيرا.

- وهل هذا هو الوقت المناسب للرياضة؟

- لم اكن افكر قط بالرياضة، ولكنى اضطررت لمتابعة الطريق سيرا... بسبب نفاد الوقود من السيارة.

قهقه بيار ضاحكا، وقال باستهزاء واضح:

- هذه انت... هذه انت، يا عزيزتى. لا تفكرين اطلاقا.

- ما بك، يا بيار؟ هل تهذى؟

اشار الى الجرح العميق فى راحة يده، وقال:

- ربما... الى حد كبير، ولكن هذا الجرح اللعين أيقظنى من ذهولي وهذيانى.

تأملت ذلك الجرح برعب وألم شديدين، وبدا لها ان دماء حبيبها ستنضب. صرخت به مذعورة:

- اوه، يجب تضميد الجرح فورا. اين صندوق الاسعافات الاولية؟ اين هو؟ اخبرنى، وانا احضره. يجب وقف الدماء التى تسيل بقوة! رباه! ان لم نعمل على تضميد الجرح حالا، فسوف تموت!

علق على لهفتها وارتباكها، بسخرية لاذعة مريرة:

- وأنت ستتضايقين كثيرا اذا حدث ذلك، ايتها العزيزة!

- اوه، طبعا. من المؤكد اننى سأتضايق كثيرا. بيار، الا تعرف اين يمكننى ايجاد صندوق الاسعافات الاولية؟ يجب وقف هذا النزيف الحاد فورا، وقبل ان انقلك الى المستشفى.

تمتم بصوت ضعيف، قائلا:

- لا يهم... لا يهم، كما أننى لا أملك اى اشياء من هذا القبيل.

- ولكنها اشياء ضرورية لا بد منها، وانا متأكدة من ان لديك بعضها فى مكان ما. اوه، ماذا سأفعل ياربى؟

نظرت حولها بهلع واضح، بحثا عن اى شىء يساعدها على لف يده. شاهدت منشفة قطنية على الجدار القريب، فاخذتها بسرعة ومزقت منها رباطا... ثم قالت له:

- ضع يدك مرة اخرى تحت الحنفية.

واضافت بعد لحظات وجيزة:

- اهدأ الآن قليلا كى أتمكن من لف الرباط حولها باحكام.

لم تكن العملية سهلة كما تصورت، ولكنها انهتها بنجاح وقالت:

- يا للغباء! لماذا لا توجد اية اسعافات أولية، وبخاصة فى بيت بعيد ومنعزل كهذا؟ ماذا كان سيحدث لك، لو لم اصل فى الوقت المناسب؟

وجه اليها سؤالا لاعلاقة له إطلاقا بكلامها، وكأنه لم يسمع اقوالها... او سمعها وقرر تجاهلها. قال لها بهدوء، فيما كان يتأملها بعينين ناعستين:

- ما بالك مبللة هكذا؟

- هبت العاصفة وأنا فى طريقى الى هنا، من المكان الذى تركت فيه السيارة. ألم تسمع الرعد؟

- بلى.

اغمض عينيه فجأة وتمايل فى مكانه حتى كاد يهوى على الارض. ولكنه

استطاع الامساك بحافة الطاولة، وقال:

- رباه، انى اشعر بضعف شديد!

- لا استغرب ذلك ابدا. فقد ارهقت نفسك اليوم بالعمل... ثم اكلت بنهم... وفقدت كمية كبيرة من الدم. اجلس الآن لبعض الوقت، حتى اعد القهوة واحاول ايجاد رباط افضل من قطعة المنشفة القديمة هذه. هيا، دعنى اساعدك. بيار، هل تؤلمك يدك كثيرا؟

جلس على احد المقعدين الخشبيين وهو يتمتم قائلا:

- انها... تنتفض، واشعر كأنها موضوعة فى نار حارقة.

ثم ثبت نظره عليها، ومضى الى القول:

- اخلعى هذه الثياب المبللة جدا، قبل تعرضك... قاطعته بشىء من الحدة:

- وماذا يمكن ان ارتدى عوضا عنها؟ لا شىء أم انك تحتفظ هنا بكمية لا بأس بها من الثياب النسائية؟ هل يوجد عندك مثلا بعض الثياب، التى تركتها هنا احدى... صديقاتك؟

ابتسم، ورد عليها مداعبا:

- هذا ما يسمى بمهاجمة الانسان بعد وقوعه ارضا، وهو أمر لا تقره الشهامة وأخلاق الفروسية. لا، يا عزيزتى، ليست لدى أى ملابس نسائية. ولكن... يمكنك ارتداء احد قمصانى، فسوف يغطى معظم أنحاء جسمك. ستجدين قميصا فى غرفة النوم التى تقع فوق هذا المطبخ. هيا، اذهبى الآن ونفذى ما أطلبه منك.

وضعت ابريق الماء على النار واحضرت كيس القهوة، ثم بدأت تنظف الطاولة وتجمع قطع الزجاج المتناثرة.

- هيا، يا ايلاين.

- حسنا، سأذهب بعد دقيقتين. اخبرنى كيف كسرت الكوب. افتر ثغره عن ابتسامة خبيثة ماكرة، وقال:

- كنت امتحن قوتى.

ثم هز يده السليمة، وقال محذرا مهددا:

- هل ستفعلين كما قلت لك، ام اننى سأضطر للقيام بهذه المهمة... بنفسى؟

ردت عليه بلهجة تجمع فى ذات الوقت بين الجدية والمزاح، قبل خروجها من المطبخ على عجل:

- اوه، يا لك من رجل متسلط!

- صعدت السلالم الضيقة والحادة الارتفاع، فوصلت الى ممر يؤدى الى غرفتين. دخلت الى غرفة النوم الفسيحة التى تقع فوق المطبخ مباشرة، فنالت إعجابها كثيرا. ثمة نافذة واحدة ناتئة من السقف المائل، تماشيا مع شكل سطح البيت، فيما الجدران الحجرية مطلية بلون اصفر شاحب. الاثاث بسيط للغاية إلا أنه رائع... فهناك سرير مزدوج كبير، وصندوقان خشبيان للثياب وأمتعة، وسجادتان قديمتان تغطيان معظم الارضية الخشبية وتتناسقان من حيث الالوان مع الستائر.

قالت ايلاين لنفسها، وهى تغير ثيابها المبللة، انها قادرة على تحويل هذا المنزل الجميل الى بيت جذاب يشبه المتاحف المليئة بالتحف القديمة والنادرة. فتحت درجا وهمت بأخذ احد قمصان بيار الزرقاء، فانتبهت الى شرود افكارها نحو اتجاهات بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع الماثلين أمامها. ما

بها؟ هل جنت؟ كيف تسمح لمشاعرها واحاسيسها بالاندفاع الى هذه الدرجة، وهى لن تعيش هنا فى بلفين؟ لم يطلب منها أحد فى الاساس الإقامة هنا، كما انها لم تكن تعلم من قبل ان بيار يسكن فى هذا المنزل!

اعترضت افكارها على محاولاتها المتكررة للحد منها والسيطرة عليها، وسبحت فى بحر من الخيال والاحلام. اوه، كم يسعدها ان تقيم فى هذا البيت... وتنام فى هذا السرير الكبير، وتستيقظ على زقزقة العصافير... وتتشق عطر الطبيعة والحرية! وقفت امام النافذة، وراحت تخطط للحديقة التى تريدها والازهار التى تحبها. الياسمين هنا، القرنفل هناك، والورود... آه ما اروع الورود واطيب شذاها!

هزت رأسها بعصبية لتستفيق من ذهولها واحلامها، واوعزت الى قلبها بضرورة الابتعاد عن العواطف والخيال... ومواجهة الواقع المرا هل يريدها بيار هنا؟ لا، والا لكان دعاها الى مرافقته. لا يريدها... يرفضها، وهذه هى حقيقة ثابتة لا تقبل الشك. لماذا لم يخبرها عن بلفين، او عن انتهاء عمله فى شامبورتن؟

وضعت ثيابها المبللة على كرسى لتجف، ثم اخذت اثنين من مناديله البيضاء النظيفة لتستخدمهما كضمادة لجرحه... ونزلت الى المطبخ. كان الماء يغلى فى الابريق، فاعدت القهوة... ووقفت امام بيار النائم، تتأمل وجهه الشاحب بعض الشىء. جاشت عواطفها تجاهه، وأحست برغبة قوية لتطويقه بذراعيها ... وتسريح شعره باصابعها.

ولكنه مقطب الحاجبين عاقد الجبين، وكأنه يتألم حتى فى نومه. جلست قربه ووضعت يدها على يده السليمة، فخافت وقلقت. لماذا هذه البرودة وهذا الاصفرار، وأين هى حرارته المعتادة وحيويته الدائمة؟ هل اصابه الجرح

العميق والنزيف القوى... بصدمة؟

همست فى اذنه بصوت مرتبك:

بيار! بيار! هل انت بخير؟

لم يفتح عينيه او يتحرك من مكانه، عندما سألها متمتما:

- ما... ماذا؟

- هل تؤلمك يدك كثيرا؟ ألم يكن من الافضل أخذك الى المستشفى لتضميد الجرح بطريقة مناسبة؟

- لا، لا حاجة لذلك.

لمعت عيناه ببريق ساخر مرح ، عندما فتحهما لفترة وجيزة، ثم ابتسم وقال:

- كيف يمكنك الذهاب الى مستشفى انجولام، وانت ترتدين هذا القميص؟

انه على صواب... كعادته. فذهابها يوم احد على هذا الشكل الى مستشفى فى بلدة صغيرة، سيجذب الانتباه ويثير موجة عارمة من الثرثرة والانتقاد. قالت له بلهفة:

- ولكننى قلقة عليك. فالجرح كبير وعميق، وجسمك بارد جدا.

- ليس كبيرا كما تعتقدين. فحصته اثناء وجودك فوق، فتأكد لى توقف النزيف... وفى اعتقادى انه سيلتئم بطريقة ملائمة وخلال فترة قصيرة.

ثم استوى فى جلسته، واضاف بلهجة اكثر مرحا وحزما:

- ستساعدنى القهوة بالتأكيد. اكثرى السكر فى فنجانى، فانا احبها حلوة المذاق. ستجدين الفنجانين والملاعق فى ذلك الجانب من خزانة المطبخ.

حدقت به بضع لحظات، فيما كانت تخيم على نفسها غمامة من شعور غريب بفقدان الأمل والرجاء. اين يوم امس وليلة البارحة؟ ماذا حل بهما؟ هل كانا حقيقة ام خيالا؟ أحست وكأنها لم تستلم منه تلك الوردة الحمراء مع فطور الصباح، ولم تركب امامه على دراجته الهوائية، ولم... قال لها بصوت هادىء:

- القهوة، يا ايلاين، ان لم يكن لديك اى مانع.

آلمتها كثيرا لهجته الساخرة، التى بدت كخنجر يطعنها به دونما اى داع اوسبب لذلك. اسرعت نحو ابريق القهوة، وهى تتذكر انها لم تقدم ابدا طوال الاشهر القليلة التى عاشتها فى شامبورتن على اعداد قهوته او طعامه... وهو ما ينتظره الرجل عادة من زوجته، حتى مع وجود الخدم فى البيت. الا توحى كلماته الآن، بأنها تأنف من القيام بمثل هذه الاعمال الزوجية العادية؟

وضعت يدها على فمها، لكى تمنع نفسها من الرد عليه بلهجة مماثلة، ولكن عينيها اغرورقتا بالدموع، لانهما يبتعدان عن بعضهما على ما يبدو... عوضا عن ردم الهوة واعادة الوفاق كالماضى. صبت القهوة فى الفنجانين الكبيرين وهى تلاحظ انحسار العاصفة وتوقف المطر عن الهطول. قدمت له فنجانه، ثم وضعت الصينية على الطاولة وجلست على الشق الثانى من المقعد، لتشرب قهوتها وتتذكر سبب حضورها الى بلفين. قال لها بيار بعد قليل:

- لا بأس اطلاقا. لم اكن لأتوقع من شابة عاشت معظم حياتها فى بريطانيا، اعداد مثل هذه القهوة الفرنسية الجيدة. اريد مزيدا من القهوة، اذا سمحت.

نظرت نحوه بانفعال لتقول له ان يحضر قهوته بنفسه، لأنها ليست خادمته. ولكنه كان ينظر عابسا الى يده الجريحة، ويهز رأسه. خف غضبها فجأة، وحلت محله فورا رغبة قوية فى مساعدته والسهر على راحته. اخذت

الفنجان الفارغ، وتوجهت صامتة الى الجهة المقابلة من المطبخ. وما ان صبت القهوة واعادت الفنجان اليه، حتى تذكرت الهدف من وراء حضورها الى بلفين. قالت له:

- أتيت اليوم لأسألك عن شىء ما، يا بيار.

- ألم يكن بالامكان الانتظار حتى يوم الثلاثاء؟ سأحضر الجنازة، كما تعلمين. وكنت انوى بالطبع مقابلتك مرة اخرى، قبل عودتك الى لندن. ولكن... هل قررت عدم الانتظار الى ما بعد الجنازة؟ هل قررت العودة غدا كما كنت تنوين سابقا لأن خالك لم يعد بيننا... ولم تعد هناك بالتالى أدنى حاجة للادعاء والتظاهر؟

- لم تعد هناك اى... ! ارتجفت يدها، فاضطرت لوضع فنجانها على الصينية حتى لا تسقط. لماذا تنسى باستمرار ان ما حدث بينهما، لم يكن الا مجرد تظاهر بالمصالحة؟ مصالحة وهمية زائفة... لم تعش سوى ساعات معدودة، عوضا عن الايام او الاسابيع التى اوحى بها اول امس، مصالحة مزعومة... وافقت عليها بتردد، نظرا لاقتناعها من صميم قلبها بانها ستنهار فى لحظة مجنونة كهذه... وفى وقت تحلم بتحول الادعاء الى حقيقة ثابتة.

قالت له بصوت ضعيف حزين:

- لا، لن اعود الى لندن غدا كما كنت انوى سابقا. سأحضر الجنازة، ولكننا لن نجد اثناءها الوقت الكافى للتحدث.

علق على كلامها بحدة وتأفف واضحين:

- فهمت الآن ماذا تقصدين. انت تريدين منى الآن جوابا على مطالبتك بالطلاق.

شرب جرعة من قهوته، ثم مضى الى القول:

- فكرت طويلا بهذا الموضوع، وقررت اخيرا افساح المجال لك للبدء فى معاملات الطلاق.

نزلت جملته كالصاعقة فوق رأسها، وشعرت بان الصدمة المذهلة قد تفقدها وعيها بين لحظة واخرى. احست بنظراته الحادة والجافة تلسع وجهها الشاحب، وتذيب رباطة الجأش التى حاولت التمسك بها. كان الطلاق اللعين آخر موضوع يمكنها التفكير به، عندما رغبت فى الحضور الى بلفين. سألته بصوت متهدج:

- وما هى الأسس التى يمكننى الاعتماد عليها، للمطالبة بهذا الأمر؟

نظر اليها بعصبية، ثم هز كتفيه واجابها بلهجة باردة جافة:

- الأسس التى تناسبك. اتصور انك لن تجدى أدنى صعوبة تذكر فى هذا المجال، اذا استعنت بمحام قدير. لماذا الدهشة والاستغراب؟ هل بدأت تعتقدين اننى لن اوافق مطلقا على الطلاق، ام انك غيرت رأيك مرة اخرى؟

أحنت رأسها قليلا، لأنها لم تعد قادرة على تحمل سهام السخرية المنطلقة من عينيه وشفتيه. اخذت نفسا عميقا، ثم تمتمت قائلة:

- انها حقا كلمات مثيرة للدهشة. فبعد ليلة امس...

خنق الأمل والذهول المروعان بقية الجملة فى حلقها، فكادت تقفز من مكانها وتفر هاربة من هذا الوضع الذى أرهق نفسها و أعصابها. لا، لن تفر مرة اخرى... فقد شبعت فرارا وهربا، وشبعت تهربا من مواجهة المصاعب فى حينها! ستبقى لتعرف كل شىء بما فى ذلك النهاية المرة والحزينة التى بدأت بوادرها. سألها ببرودة:

- ماذا حدث ليلة امس؟

عصر الألم قلبها، لأنه يسألها عما حدث! قالت له بصوت مرتجف:

- انت تعرف جيدا ماذا حدث، يا بيار.

- حقا؟ لم ألاحظ او ادرك ان للحب علاقة بما جرى. تصورت ان ما حدث بيننا امس، جاء تلبية لرغبات معينة كان كل منا فى حاجة اليها. فقد تصادف وجودنا معا فى غرفة واحدة، فتمت الأمور اللاحقة بصورة طبيعية. وكل ما فى الامر، ان زواجنا الذى لا يزال قائما حسب الاوراق والمستندات... اضفى الصبغة القانونية على ما قمنا به.

استشاطت ايلاين غضبا وسخطا، من جراء الاهانة الحقيرة التى اوحت بها كلماته القاسية اللاذعة. انه ينتقم الآن مما قالته له امس. تبا له! احست برغبة للانقضاض عليه... لصفعه... لغرز اظافرها فى وجهه، ولكنها تذكرت على الفور ما حل بها فى مناسبات مماثلة سابقة. تمكنت بعد قليل من القول له:

- ولكن كيف يمكنك التحدث اليوم عن الطلاق؟

- لأن هذا هو ما تريدينه، ايتها الحبيبة أليس كذلك؟ هل نسيت كلامك لى يوم الجمعة؟ الم تذكرى انك لست بصدد المصالحة معى... وبانك تريدين الطلاق... وبأن ما من شىء، بما فى ذلك احتمال حرمانك من ارث خالك، سيثنيك عن رأيك؟ الآن، توفى خالك ولم يعد هناك اى مجال لجرح مشاعره او تغيير وصيته. وبناء على ذلك، فانا افعل الآن ما يوافقك ويناسبك... ويرضيك. ها قد وافقت اخيرا على رغبتك فى الطلاق، فلماذا الاستغراب؟

لم تشعر هذه المرة بسخريته التى اعتادت عليها، فقد تحدث بصدق وهدوء مذهلين. تأملته ايلاين وهو يسند رأسه ثانية الى حافة المقعد

الخشبى، ويغمض عينيه عابسا متوجعا. قالت لها مارجريت ان شيئا ما يقض مضجعه ويحزنه، وها هى ملامح وجهه تؤكد ذلك بشكل لا يقبل الشك. بدا حزينا حتى اليأس وكأنه يعكس شعورها عندما سمعت كلام سولانج... وفرت عائدة الى لندن. احست بأن حزنه المحتمل يحزنها، والألم الذى ربما يشعر به يؤلمها ويحز فى نفسها. سألته بارتباك واضح:

- ولكن... هل الطلاق هو... هو ما تريده... انت؟

فتح عينيه ببطء شديد، ثم قال برقة ونعومة:

- اريده، اذا كان سيسعدك. فكل ما اريده، واردته دائما، هو اسعادك.

بصيص أمل... وشعاع رجاء! عاد الاحمرار تدريجيا الى وجنتيها، وهى تسأله:

- هل هذا يعنى...

قاطعها صوت نسائى ناعم، آت من الممر الداخلى:

- مرحبا، يا بيار! بيار؟ أين انت؟ ارجو ان تكون هنا، والا فستذهب رحلتى أثناء العاصفة دون فائدة. اوه، يا لها من عاصفة هوجاء!

تجمد الدم فى عروق ايلاين وشعرت برعشة قوية تسرى فى جسدها، عندما عرفت صاحبة الصوت. استدارت بسرعة نحو الباب، وحدقت بذهول بالغ. كانت سولانج بورجيه واقفة فى الباب بكامل اناقتها، ووراءها رجل طويل القامة اشقر اللون... وذو لحية حمراء.

٧ ـ مواجهة

مرت لحظات صمت عصيبة وثقيلة، والشخصان الجالسان يحدقان بالاثنين الواقفين فى الباب بطريقة تدل على شدة الاستياء من هذه الزيارة غير المتوقعة. ثم وقف بيار وقال للزائرة بصوت عميق ناعم، بعد مسارعته الى اخفاء يده الجريحة فى جيب سرواله:

- اهلا وسهلا بك، يا سولانج. لم اتوقع حضورك بمثل هذه السرعة.

- تقدمت نحوه بذراعين مفتوحتين وابتسامة مشرقة ثم وضعت يديها على كتفيه وخدها على خده... حسب الطريقة الفرنسية، وقالت:

- اوه، يا صديقى العزيز، اننى مسرورة برؤيتك.

- ثم استدارت نحو الرجل الذى دخل وراءها، وقالت له:

- تعال، يا بيورن، لأعرفك على صديقى العزيز جدا... بيار دوروشيه.

حولت نظراتها بسرعة نحو ايلاين، التى ظلت ساكنة على المقعد وكأنها اصبحت قطعة من الجليد واضافت بلهجة ساخرة خبيثة:

- وأيضا على من كنت اظنها... حتى الآن... زوجته ذات الطباع الغريبة ايلاين.

احنى العملاق الأشقر رأسه أدبا واحتراما، وقال:

- انا بيورن بيورلينج ويسعدنى التعرف عليكما.

رد عليه بيار بتهذيب مماثل:

- على الرحب والسعة. تفضل، اجلس. ايلاين، من فضلك هل من الممكن اعداد المزيد من القهوة؟

- نعم، نعم. طبعا.

- حملت الصينية بشىء من الحدة بعد ملاحظتها ان سولانج تتأملها باستهزاء... وحقد. وضعت الماء على النار وأصغت بانتباه بالغ، كى تسمع كل كلمة يقولها الآخرون. بدأ بيار الحديث بالقول:

- متى عدت من باريس، يا سولانج؟

- فى وقت متأخر من ليلة امس. انا آسفة جدا، ايها الصديق العزيز لعدم قدرتى على مقابلتك تلك المرة. وأمل فى الا يكون غيابى عن الشقة قد تسبب لك بأى ازعاج. قالت لى السيدة أولات انك كنت متضايقا قليلا من شىء ما، فقررت الحضور اليك فى أسرع وقت ممكن.

احست ايلاين بالغيرة تطعنها فى الصميم، وتخلف جرحا عميقا فى قلبها وعواطفها وكرامتها. لماذا توحى كل كلمة تقولها سولانج، بوجود علاقة حميمة تربطها مع بيار؟ لماذا ... ؟ سمعت زوجها يعلق بكلام هادىء على تلك الجملة، ثم يحاول ابعاد الحديث عن المواضيع الشخصية:

- لا، لم اشعر بأى ازعاج على الاطلاق. هل انت فى اجازة هنا، يا سيد بيورلينج؟

- لايمكن وصف اقامتى هنا على هذا الوجه تحديدا. فأنا فنان ايضا، و اتنقل بين هذا البلد وذاك.

تدخلت سولانج على الفور، وعندما أحست بتردد رفيقها الناجم عن عدم طلاقته بالفرنسية، وقالت:

- التقينا فى العام الماضى، فى استوكهولم. اتصل بى هذه السنة ليقول انه قادم الى باريس، ويحب مشاهدة بعض المدن الأخرى واجزاء معينة من الريف الفرنسى، ذهبت الى العاصمة لاستقباله ودعوته الى الاقامة هنا بعض الوقت، ويأمل بيورن فى التوجه الى اسبانيا، فى فترة لاحقة.

لاحظت ايلاين، أو هكذا تصورت، ان سولانج تحاول استرضاء بيار بشتى الطرق... وكأنها تريد اقناعه بعدم وجود اى علاقة تربطها بهذا الرجل السويدى، تماما كما تفعل اى امرأة مع حبيبها الغيور عندما يكتشفها مع رجل آخر. تطلعت بسرعة نحو بيار للتأكد من ردة فعله، فظهر لها غاضبا الى حد ما. حولت نظرها بالسرعة ذاتها الى بيورن، فلاحظت انه يشعر بشىء من الاحراج والارتباك. لم يعلق بيار على المعلومات المتعلقة باللقاء والدعوة واحتمالات السفر، فعادت سولانج الى المواضيع الشخصية والخاصة. سألته بغنج ودلال:

- لماذا اتيت لزيارتى امس؟

- كى أستعيد بعض الأشياء الخاصة بى، والتى اعتقد اننى نسيتها فى شقتك.

تظاهرت سولانج بالدهشة وهى تسأله بهدوء:

- اشياء تخصك؟ وهل توجد عندى اشياء كهذه؟

- طبعا! هل نسيت؟ عندما زرتك فى احد ايام الشتاء لشراء احدى لوحاتك الفنية الجميلة، تركت قفازين وقداحة وعلبة سكائر على طاولة صغيرة فى القاعة. وقد شاهدتها ايلاين فى وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه.

وضعت ايلاين الفناجين الأربعة على الصينية وتطلعت نحو سولانج، التى نظرت اليها بتحد واضح وسألتها:

- حقا، يا ايلاين؟ لماذا، اذن، لم تأخذى تلك الأشياء معك لدى مغادرتك شقتى؟

سؤال فى محله... ولكن كيف ستتمكن من الاجابة عليه بحضور رجل غريب؟ لاحظت نظرات الاستهزاء فى عينى بيار، فقالت وهى تدير وجهها نحو ابريق الماء:

- لم افكر حينئذ بهذا الامر.

التفتت سولانج مرة اخرى نحو بيار، وسألته بصوت دافىء مغر:

- هل كان ذلك حقا السبب الوحيد لزيارتك؟

- فى واقع الأمر لا! كنت اتطلع الى ايضاح مسألة صغيرة تزعجنى منذ بعض الوقت. كنت آمل فى سماع شرحك للأسباب التى دفعتك لابلاغ ايلاين بأننى زرتك اكثر من مرة فى شقتك بانجولام.

تظاهرت سولانج مرة ثانية بالدهشة والاستغراب وسألته ببرودة:

- هل قالت لك ذلك حقا؟

استدارت ايلاين نحوها على الفور، فواجهتها سولانج بنظرات التحدى والانفعال قائلة:

- من المؤكد انك أسأت فهمى، يا ايلاين.

تطلعت نحو بيار، ومنه الى ايلاين، ثم وضعت يدها على خدها ومضت الى القول هامسة:

- اوه، رباه! ألهذا السبب... لا، لم تتصورى آنذاك بالتأكيد ان بيار وأنا...

توقفت عن استكمال جملتها، وغطت وجهها بيديها... وهى تهز رأسها بكثير من العصبية. تحول ارتباك بيورن وذهوله الى قلق واضح وترقب، فاقترب منها وهمس ببضع كلمات فى اذنها. لم تتحرك من مكانها ولم ترفع يديها عن وجهها، ولكنها هزت كتفيها وكأنها تقول له... دعنى وشأنى. ظلت ايلاين واقفة دون حراك، وهى تشعر بالألم والسخط. لقد نجحت سولانج على ما يبدو فى اظهارها اندفاعية متهورة، وبأنها تسرعت فى اصدار احكام مبرمة بناء على ما تخيلته حقيقة ثابتة. نظرت نحو بيار مستنجدة به، فبدت ملامح وجهه بعيدة كل البعد عن الشفقة والرحمة... أو حتى عن الاستعداد للغفران. قالت بصوت ضعيف حزين:

- لم... لم اكن مخطئة. هكذا قالت لى.

رفعت سولانج وجهها وأبعدت خصلات الشعر التى تغطى قسما منه، ثم نظرت الى بيار وهزت كتفيها قائلة:

- لماذا اكذب فى موضوع كهذا؟

اجابها بلهجة جافة:

- هذا ما كنت اتساءل عنه منذ البداية.

لم تعد ايلاين قادرة على تحمل المزيد من تصرفات سولانج الخبيثة والماكرة، فصرخت بها فجأة:

- ولكنك كذبت، يا سولانج بورجيه! كذبت فى كل شىء، وعن كل موضوع تحدثت معى عنه. قلت لى اشياء كثيرة، اكتشفت فيما بعد عدم صحتها. كذبت عن والدة بيار، عندما قلت انها تزوجت أباه كذريعة للتقرب من خالى. كذبت عندما أوحيت لى بأننى سأرث شامبورتن، وبأن هذا هو السبب الوحيد

لاقدام بيار على الزواج منى. انا اعرف الآن ان مارجريت تزوجت من جان دوروشيه، قبل فترة طويلة من ذهابه للعمل فى شامبورتن. وأعرف ايضا اننى لن ارث شيئا يذكر من خالى، لأن شركة سان فيران تملك كل شىء فى شامبورتن. . . بما فى ذلك القصر. كذلك، فأنا اعرف الآن ان بيار لم يقم بزيارتك فى شقتك الا مرة واحدة. . . بهدف شراء لوحة فنية. كذابة. منافقة! كذبت على، وأنا كنت غبية جدا بحيث اننى صدقتك فى كل كلمة قلتها لى!

قالت لها سولانج بكثير من النعومة، تكاد تصل الى درجة الرقة والحنان:

- ايلاين، عزيزتى، لاشك فى انك غاليت كثيرا فى ردود فعلك وتصرفاتك الغاضبة. هذا كله من نسج خيالك، فأنا لم اقل أى شىء عن والدة بيار أو عن شامبورتن. وحتى لو اننى ذكرتهما فى معرض حديثنا العام، فأنا متأكدة من انك لم تفهمى كلامى على حقيقته. . . لأنك لا تستخدمين لغتك. هذا ما يشعر به بيرون احيانا، عندما نتحدث معا بالفرنسية. أليس ممكنا اذن، ان تكون المشكلة نابعة عن صعوبة فى الترجمة أو سوء التفسير؟ كلمة من هنا وأخرى من هناك، ويتغير المعنى تبعا لذلك بصورة جوهرية. ألا توافقنى على ذلك، يا بيار؟

- نعم، انه احتمال وارد.

شعرت ايلاين بالألم الحاد يعصر قلبها، ويحطم سعادتها و آمالها أمام ناظريها. انه يصدق كلام سولانج ويقبل تفسيرها وتبريرها! انطلقت من فمها صرخة احتجاج مكبوتة، وفرت هاربة من الغرفة... تماما كما حدث معها فى العام الماضى وفى شقة هذه المرأة اللعينة بالذات.

توقفت لحظة فى الممر، عندما لاحظت انها حافية القدمين ولا ترتدى

سوى قميص بيار. لن تتمكن من مغادرة بيته على نحو غير لائق كهذا، وهو ما يعنى اضطرارها لارتداء ملابسها المبللة. ركضت بسرعة نحو الغرفة العليا، ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها بعصبية بالغة. اسندت ظهرها الى الباب لتقلل من ارتجاف جسمها، فتذكرت كيفية خروجها من شقة سولانج قبل تسعة اشهر وجلوسها فى السيارة... لتفكر بما ستفعل. ها هى الآن، كما فى المرة السابقة، تفر من وضع معين... لعدم قدرتها على مواجهته ومعالجته، ولتألمها البالغ من وجود علاقة ما بين بيار وسولانج.

خلعت قميص بيار وارتدت ثيابها المبللة، فأحست برجفة البرد وقشعريرته. ستذهب الى بليك، لاحضار بعض الوقود لسيارة البيجو و... ! اوه، لقد نسيت، او بالأحرى أنستها الظروف والتطورات المتلاحقة، ابلاغ بيار بضرورة الذهاب غدا الى شامبورتن لسماع وصية خالها. ولكنها علمت على الأقل انه يوافق على منحها الطلاق، لانه يريد اسعادها. . . وليس لأنه هو راغب فى ذلك. اوه! لماذا أتت سولانج فى تلك اللحظة، التى بدأت تستعيد فيها بعض الأمل؟ ولكنها انت، ولم يعد هناك بالتالى أى داع لوجودها هى ...

انهمرت الدموع من عينيها حارقة، وهى تهم بمغادرة الغرفة. كلما أسرعت فى الابتعاد عن هذا البيت الذى احبته وتمنت البقاء فيه، كان ذلك افضل لها... وكذلك الأمر بالنسبة لمغادرتها فرنسا. لن تعرض نفسها بعد الآن للألم، وقلبها للتحطم. ولكنها، وللأسف الشديد، لن تعرف من الآن فصاعدا معنى السعادة واللذة والهناء!

تسللت من المنزل بحذر تام خشية أن يراها أحد، وبدأت تجرى بأقصى سرعتها على الطريق الطويلة الضيقة... والموحلة. كانت السماء زرقاء

صافية، و العصافير سعيدة فرحة، والاعشاب خضراء نظيفة. ولكن الغيوم السوداء لم تترك قلب ايلاين الحزين! وما ان اقتربت من نهاية الطريق، حتى شاهدت سيارة تقترب بسرعة والرذاذ يتطاير بعنف من تحت عجلاتها. تقدمت من حافة الطريق، وهى تلوح بيدها ... مشيرة الى السائق بالتوقف.

- طاب نهارك، يا سيدتى. هل يمكننى مساعدتك بشىء؟

كان السائق مزارعا فى منتصف العمر على ما يبدو طيبا ومهذبا. فارتاحت ايلاين اليه وشرحت له مشكلتها بايجاز ثم طلبت منه نقلها الى اقرب محطة للوقود. قال لها وهو يفتح الباب:

- لدى اقتراح أفضل من هذا. توجد معى صفيحة اضافية من الوقود، ستوصلك بالتأكيد الى بليك... حيث يمكنك ملء خزان سيارتك.

جلست قربه، وقالت له بامتنان ظاهر:

- شكرا لك، ايها السيد.

وصلا الى سيارة البيجو، فأفرغ المزارع صفيحة الوقود فى خزانها وهم بالذهاب. عرضت عليه ثمن الوقود، فلم يقبله الا بعد اصرار شديد. يا له من رجل طيب! كررت شكرها له، فأحنى رأسه تهذيبا واحتراما ثم حياها مودعا ومتمنيا لها التوفيق. توجهت الى بليك، حيث ملأت خزان الوقود وتابعت طريقها الى شامبورتن.

ولدى اقترابها من الجسر الذى تعبره السيارات الى قرية شامبورتن، توقفت بضع لحظات لتفكر بما ستفعله. ووجدت نفسها فى حيرة بالغة هل تتجه يسارا الى القصر لتسمع محتويات الوصية وتحضر جنازة خالها، ام تتحول الى اليمين وتتابع سيرها الى باريس؟ قد تجد طائرة الى لندن هذه

الليلة، أو تضطر للانتظار فى المطار كى تستقل فى الصباح أول طائرة متجهة الى العاصمة البريطانية. من سيتضايق فى شامبورتن من ذهابها الآن؟ لم يعد هناك خال عجوز، يحزن لذهابها ويحطم قلبه واحلامه هربها للمرة الثانية... والأخيرة. مارجريت؟ قد تشعر بأن فرارها دليل على عدم الاحترام لذكرى خالها، ولكنها لن تصاب بأى دهشة أو استغراب. ستعتبر هذا التصرف مثلا جديدا على تهور كنتها، واثباتا آخر بأنها ليست زوجة صالحة ومناسبة لابنها.

اما بيار، فلن يشعر قطعا بأى انزعاج او انقباض. ألم يوافق، قبل أقل من ساعتين، على الطلاق؟ صحيح انه تحجج بسعادتها وراحة بالها، ولكنها تظن الآن انه فعل ذلك لكى يبرر هذا التبدل السريع المفاجىء فى رأيه.

فلماذا لا تذهب الآن اذن، طالما ان الفرصة مهيأة لها، لماذا لا تترك وراءها الى الأبد، احلام السعادة والهناء؟ انها مجرد احلام... أضغاث احلام! وهل تدوم الأحلام الى ما لا نهاية؟

قادت السيارة بضعة امتار الى الأمام لتعبر الجسر، ثم حولتها الى اليمين. شاهدت مارسيل امام مرآبة، وهو يملأ خزان احدى السيارات بالوقود. وعندما رأى سيارة خالها، لوح لها بيده محييا... فلم ترد التحية بالمثل، بل اطلقت العنان للبيجو لتبتعد عن شامبورتن... الى الأبد. وصلت بعد دقائق معدودة الى المكان ذاته، الذى انزلقت فيه سيارة الرينو الصغيرة، فخففت السرعة قليلا وبطريقة لا إرادية. وبعدما تجاوزت ذلك المنعطف، تطلعت فى المرآة الصغيرة لتلقى نظرة اخيرة و...

شهقت بذهول واستغراب شديدين، عندما لاحظت سيارة السيتروين الرمادية اللون تجد فى اثرها... وتحاول تجاوزها... حتى على الرغم من

المنعطف الخطر الذى تقترب منه. ضغطت بقوة على دواسة الوقود، فوثبت البيجو كاحدى سيارات السباق وانطلقت بسرعة جنونية. . . بعد تمايلها قليلا على الطريق المبللة. أمسكت ايلاين جيدا بالمقود، لتضمن عدم انزلاق سيارتها أثناء عبورها ذلك المنعطف القاسى.

برزت فجأة سيارة اخرى من الناحية الثانية، فقفز قلبها من مكانه وشعرت بجفاف حاد فى فمها . نظرت بسرعة الى المرآة، فأحست بارتياح بالغ. تفادى السائق الاصطدام بالسيارة الآتية باتجاهه، ولكن بمسافة قصيرة للغاية. لم تكن السيتروين حينئذ الا على بعد أمتار قليلة عنها.فلاحظت ان سائقها المجنون ليس سوى... بيار... وانه وحده.

استغلت فرصة ظهور سيارة ثانية من الجهة المقابلة، وعدم تمكن بيار بالتالى من تجاوزها، فزادت الضغط على دواسة الوقود بحيث اوصلت سرعة السيارة الى أقصى ما يمكن.استقامت الطريق ثانية، ولم تعد هناك على ما يبدو أى سيارات آتية باتجاههما. حول بيار سيارته الى يسار الطريق، ثم اقترب منها. . . دون أن يتجاوزها. بدت السيارتان وكأنهما حصانان يتسابقان ولا يتمكن أى منهما من تجاوز الآخر.

توترت اعصاب ايلاين بطريقة مذهلة ولم يعد باستطاعتها تركيز انتباهها على الطريق المبللة الممتدة امامها، وذلك لاهتمامها بتجنب أى احتكاك أو تصادم بين السيارتين. وفجأة، ظهرت سيارة آتية نحوهما. سيضطر بيار الآن اما الى تجاوزها، وهو قادر على ذلك بكل سهولة، واما الى تخفيف سرعته قليلا والتحول الى يمين الطريق. ولكنه لم يفعل أى شيء من هذا القبيل، وحافظ على سرعته ذاتها.

ملأ الرعب والهلع قلبها، عندما ادركت ان اصطداما مروعا وهائلا سيقع بين سيارة بيار والسيارة الأخرى. . . مما سيؤدى الى مصرعه. لم تفكر بمن قد يكون فى السيارة الثانية وبما قد يحصل لهم، لأن همها الوحيد كان. . . بيار! حولت سيارتها الى اقصى اليمين، وضغطت على المكبح. انزلقت البيجو واستدارت حول نفسها، بحيث تزحلقت العجلتان الخلفيتان نحو القناة المنخفضة وأصبحت مقدمة السيارة باتجاه شامبورتن.

فتحت عينيها بعد لحظات من الغضب العارم، المشبع بالصدمة والخوف، فلم تشاهد الا السماء وقد تلبدت ثانية بالغيوم السوداء. اطفأت المحرك وحاولت الخروج من السيارة، التى كانت تشكل مع حافة الطريق زاوية من خمس واربعين درجة. لم تتمكن من فتح الباب بالسهولة التى تصورتها، ففتحه لها بيار وهو يسألها ببرودة تضج سخرية واستنكارا:

- تحاولين الهرب مرة اخرى؟

نظرت نحوه، فلم تجد برودة مماثلة فى عينيه ونظراته. كان يحدق بها بسخط بالغ، لا يوازيه سوى غضبها وحنقها. خرجت من السيارة، صارخة:

- بحق السماء، ماذا كنت تفعل؟ تحاول تجاوزى فى منعطف محفوف بالمخاطر، ثم تصر على ابقاء سيارتك منطلقة فى وسط الطريق... حتى على الرغم من اقتراب سيارة اخرى من الناحية المعاكسة؟

- كنت احاول ادخال الخوف والرعب الى قلبك، ويبدو اننى نجحت تماما فى ذلك. الى أين كنت تظنين نفسك ذاهبة؟

هزت رأسها بعنف لترجع شعرها الى الوراء، وقالت بحدة:

- الى باريس، ومنها الى لندن، ولن تستطيع منعى.

اشار الى سيارة البيجو، وقال لها بلهجة جافة:

- ولكننى منعتك... ولن ادعك تتابعين رحلتك. ستعودين معى الى شامبورتن.

- لا، يا بيار، فما فائدة ذلك؟ لقد قلنا كل شىء، وأنت وافقت على الطلاق... وهذا هو كل ما كنت اريد معرفته.

وقال:

- لم اكن افكر بالوضع القائم بيننا، بل باتباع الأمور المتعارف عليها حسب الأصول. لا يمكنك مواصلة الهرب، يا ايلاين، لمجرد سماعك كلاما لا يروق لك. ألم يحن الوقت بعد، لتنضجى وتصبحي راشدة؟

- انا ناضجة وراشدة!

- تصرفى اذن انطلاقا من ذلك، وهيا معى الى شامبورتن. انت مدينة لخالك، على الأقل، بسماع وصيته وحضور جنازته.

توقف لحظة، ثم تابع حديثه الهادىء قائلا:

- لايمكنك ابدا تصور مدى الانزعاج والضيق الذى احس به الجميع، عندما هربت فى العام الماضى... ومدى القلق الذى شعر به كل منا، عندما عرفنا انك لن تعودى فى مساء ذلك اليوم الماطر. خافت امى كثيرا من احتمال تعرضك لحادث سيارة... وأنا كذلك. ذهبت للبحث عنك على طول الطريق من هنا حتى انجولام.

- حقا؟ ولكنك لم تكن فى القصر! كان يفترض بك ان...

- قلت لك قبلا اننى تركت المدينة فى وقت مبكر، لأشترى هدية عيد ميلادك. وصلت الى القصر، ومعى الهدية، وجلست انتظر. وعندما لم يظهر لك اى اثر، انتابنى كالجميع قلق عظيم.

- ثم هز رأسه، وأضاف بالهدوء ذاته:

- وها انت الآن تحاولين الاقدام على ارتكاب الخطأ نفسه، وتعذيبنا بطريقة مماثلة. لماذا؟ الأنك لم تفكرى؟ الأنك تصورت اشياء غريبة عجيبة، كما حدث عندما شاهدت القداحة والقفازين فى شقة سولانج؟ لم تفكرى بأحد سوى نفسك، وبمدى الألم الذى احسست به. لم تفكرى بى اطلاقا.

كان المطر ينهمر بقوة فى تلك اللحظة، وكذلك... دموعها. قالت له بصوت مرتجف، وهى تمسح عينيها ووجهها:

- آسفة. لم اقصد ازعاج احد أو اقلاق اى كان، ولكن... ولكنى شعرت بألم حاد ينخر عظامى عندما وافقتها اليوم على كلامها...

أمسك بذراعها وهزها قليلا، وهو يقاطعها بتحد بالغ:

- ماذا تقولين؟ هل تصورت اننى وقفت الى جانبها؟

- نعم. فعندما اتهمتنى بذكاء خبيث ماكر بأننى اسأت تفسير كلامها نظرا للتعقيدات اللغوية، صدقتها على الفور! قلت لها ان سوء التفسير والفهم، محتمل فى مثل هذه الحالات. لم تصدق كلامى، ولكنك قبلت تفسيرها هى لما حصل.

- وعليه... قررت الهرب مرة اخرى! لم تزعجى نفسك بالانتظار دقيقة اخرى، حتى تسمعى بقية الأشياء التى قلتها لها. آه، ايتها الحبيبة، كم من مرة

ستحصل هذه الأمور قبل أن تتعلمي؟ هل تريدين معرفة ما قلته لها؟

- نعم، نعم.

- هيا اذن الى السيارة الأخرى، قبل ان نغرق هنا. سنتصل بمارسيل من القصر، ونطلب منه احضار البيجو. اتصور انه سيجد الموضوع ممتعا للغاية.

وضع ذراعه حول كتفيها، وسارا معا نحو السيارة الرمادية. لم تحتج أو تمانع، عندما أدار المحرك وانطلق باتجاه شامبورتن. هاهو اللعين يتولى زمام الأمور مرة اخرى، ولكن شعورها الآن مختلف نوعا ما عن السابق. عاد الأمل يرفرف فى قلبها ويدغدغ مشاعرها وعواطفها من جديد. انه رجل لعين، ولكنها تحبه كثيرا... وتعرف مدى رغبتها فى تملكه الكامل والتام لها!

- قلت لسولانج اننى اشك كثيرا فى امكانية حدوث سوء تفاهم، بسبب اللغة، وذلك لأنها كانت تتحدث مع شخص يعرف اللغة جيدا. عرفت انها تواصل الكذب، تماما كما فعلت معك فى العام الماضى، وأصبحت ادرك الآن سبب كذبها. عرفت السبب فور وصولها الى بلفين، بتلك الصورة المفاجئة.

- اوه! لماذا كذبت اذن؟

اجابها بصراحة مطلقة:

- لأننى رفضتها ونبذتها.

- رفضتها ونبذتها؟ ولكنى كنت أعتقد انك ابتعت احدى لوحاتها.

- صحيح، لكن الرفض كان لها وليس للوحتها. فعندما ذهبت الى شقتها فى تلك المرة الوحيدة لرؤية اللوحة، تظاهرت فجأة بأنها تعانى من شدة الهجر والبؤس... وبأنها مشتاقة الى كثيرا، ونادمة جدا على عودتها بعد

زواجى من امرأة اخرى.

ثم مضى الى القول، بلهجة اكثر قساوة وسخرية:

- اقترحت على اقامة علاقة والبدء من حيث انتهينا، فرفضت رفضا باتا.

هنا تذكرت ايلاين كلام مارجريت عن سولانج، فقالت:

- لم يعجبها ذلك بالطبع، فقررت الانتقام.

- تماما وقد تمكنت من تحقيق أغراضها والانتقام لعزة نفسها، خلال وقت قياسى لم تكن لتحلم به.

وصلا فى تلك اللحظة الى المنعطف الذى تعرضت فى نهايته لتلك الحادثة البسيطة، فتنهد بيار ومضى الى القول بلهجة تحمل الكثير من الألم والمرارة:

- زرتها انت فى وقت لاحق من اليوم ذاته، فامطرتك وابلا من الأكاذيب عنى وعن امى وخالك والارث. لو توقفت آنذاك لحظة جدية للتفكير الناضج، وأتيت لاطلاعى على ما حدث، لكان بامكانى ايضاح كافة هذه الامور خلال بضع دقائق. كنت سأخبرك جميع المعلومات التى اطلعت عليها بنفسك، خلال هذين اليومين. ولكنك لم تفعلى ذلك، ولا اعرف حتى الآن سبب هذا التصرف. لماذا لم تثقى بى، يا ايلاين، لماذا؟

- تألمت... تألمت كثيرا، بحيث فقدت السيطرة على اعصابى ولم اعد اعرف ماذا على أن افعل. كنا سعيدين جدا، انت وأنا... هكذا كان شعورى أنا على الاقل، وتصورت انك مثلى. اوصلنى وجودى معك وقربى منك كل يوم الى السماء السابعة، الى قمة السعادة التى لم احلم قط بالوصول اليها. ثم قالت لى سولانج انك تزورها... وأوحت بانك لا تزال تحبها... فثارت

اعصابى ولم اعد اتحمل سماع المزيد. انا... تزوجتك، لأنى ... لأنى احببتك حبا جارفا. وعندما اكتشفت فجأة انك لا تحبنى، كدت اصاب بانهيار عصبى... وقررت الهرب على الفور.

زاد بيار من سرعة السيارة بشكل جنونى، ثم اوقفها بعد عبورهما الجسر فى منطقة هادئة قرب النهر... واطفأ محركها. وما هى الا لحظات معدودة، حتى ضرب المقود بيديه، وصرخ قائلا:

- الكذابة المنافقة الوضيعة! لقد صممت عمدا على تحطيم زواجنا، بسبب حسدها لك. ولكن... ولكنك قلت قبل قليل انك قبلت الزواج منى، لأنك احببتنى. اى حب هو هذا الذى يتضعضع وينهار كليا بهذه الطريقة بمجرد مواجهته امتحانا... حتى كهذا؟

ثم نظر اليها بحدة، وأضاف بلهجة ساخرة تحمل الكثير من المرارة فى طياتها:

- يا له من حب بسيط سطحى!

ردت عليه ايلاين بعصبية ممائلة:

- لم اتزوجك على الأقل الا بسبب الحب، سطحيا كان ام عميقا.

- اما انت فقد تزوجتنى بناء على رغبة خالى، وهذا امر لم تكذب فيه سولانج.

- رغبة خالك؟! اوه، لقد ذكرت لى ذلك من قبل. قلت لى ايضا انه استخدم الرشوة معى، لكى اقبل بالزواج منك. أنا لا أعرف من اين اتتك هذه الفكرة المستهجنة؟

- اتراجع... اتراجع الآن عما قلته بالنسبة للرشوة، لأننى تأكدت اليوم

من انه لم يكن لديه اى شىء ليستخدمه كرشوة. ولكننى اعرف انه هو الذى خطط لزواجنا، لأنه ابلغنى ذلك بنفسه صباح امس.

- التخطيط الوحيد الذى اعده خالك، حسبما اعرف، هو دعوتك فى الصيف الماضى لتمضية عطلتك الصيفية فى شامبورتن. التقينا نتيجة لذلك، ولكن التطورات التى تلت اللقاء كانت طبيعية وحتمية. شعر كل منا بانجذاب نحو الآخر، فخدعنا نفسينا لتقتنعا باننا نحب بعضنا...

توقف عن اتمام جملته وأبعد وجهه عنها، فاعترضت على كلامه بعنف قائلة:

- انت الذى حاولت الخداع، وليس انا. اقنعتنى ظهر ذلك اليوم الحار فى الغابة، بأنك تحبنى. وبعدما اصبحت اعرف الآن انك لم تفعل ذلك بدافع مادى أوسعيا وراء مكاسب مالية، لم يعد هناك الا سؤال لا يزال يحيرنى ويزعجنى. لماذا تزوجتنى...

اختنقت بقية سؤالها فى حلقهاوجحظت عيناها، عندما شاهدته يدير وجهه القاسى نحوها فجأة ويهز كتفيها بعنف بالغ... صارخا بعنف مذهل كأنه بركان ثائر:

- لا تفهمين... لا تفهمين. وهذه هى مشكلتك الكبرى والأساسية منذ البداية. ايلاين لقد تزوجتك لأننى احببتك، ولأننى لم اقبل بأن تكون علاقتنا هامشية وعابرة... والتسلل كاللصوص الى غابة هنا أو مرج هناك. اردتها علاقة عميقة، وطيدة، ودائمة...

ترك كتفيها فجأة ووضع مرفقيه على مقود السيارة، ثم غطى وجهه بيديه وتمتم قائلا:

- رباه انك ترغمينني، من حيث تدرين او لاتدرين على التصرف معك بطريقة مجنونة وبعيدة كل البعد عن طبيعتي ووجداني... على استخدام الوحشية والعنف اللذين لا أقرهما نهائيا.

ضحك بألم، وانهى كلامه المطول بالقول:

- وصلت بى مرحلة اليأس الى درجة الموافقة على منحك الطلاق، لأننى احبك كثيرا ولا يمكننى أن أتحمل رؤيتك حزينة ومتألمة بسبب زواجك منى... رغما عنك.

هدأ روع ايلاين بصورة تدريجية بطيئة، بعدما بلغ ذعرها ذروته اثناء الهجوم العنيف الذى تعرضت له قبل لحظات. بدأت معانى كلماته الأخيرة تخترق عقلها وقلبها بهدوء وحذر، وظهرت امام عينيها تلك الأشعة الخافته من الأمل التى لاحظت مثلها قبل ساعات قليلة فى مطبخ بيته. احبها... ولا يزال يحبها، وقال لها ذلك بنفسه ... وبصراحة تامة دون مواربة. ولكن لا تزال هناك بعض الأسئلة التى تحتاج الى اجابة صريحة، قبل الاعتراف امامه مجددا بحبها الجارف له. سألته بتردد:

- لو انك احببتنى حقا، فلماذا لم تلحق بى الى لندن و تطلب منى العودة الى البيت؟ لماذا فضلت الانتظار اشهرا ثلاثة، ثم كتبت تلك الملاحظة الوجيزة الكريهة؟ اوه، بيار، لو انك تعلم كم تعذبت و تألمت بانتظار حضورك الى لندن... وسماع مطالبتك لى بالعودة و سماع كلمة واحدة اخرى تعيد الحياة الى قلبى... احبك!

لم يعلق على كلامها بشىء، ولم يتحرك من مكانه. ظل صامتا بضع لحظات، ثم تحولت الثوانى الى دقائق، فقررت ايلاين القيام بمحاولة ثانية. قالت له:

- اتصور ان أى خطوة من جانبك لشرح ما حدث، ستكون بمثابة كشف لروحك وشخصيتك. انك لن تفعل ذلك امام اى امرأة... حتى زوجتك. وينطبق الأمر ذاته ايضا، على رفضك الاعتراف بحزنك وتعاستك.

ثم تنهدت، وتابعت حديثها قائلة بهدوء:

- لا بأس. فأنا غير مهتمة بذلك كثيرا. ولكننى سأظل اتساءل دائما ولا افهم... وساطرح اسئلة على نفسى باستمرار، دون أن احظى بأى جواب سوى من صنع خيالى. كيف سيكون شعورى، اذا رفضت مشاركتى افكارك وعواطفك؟

- تطلع بيار نحوها، وعلى وجهه المتعب ابتسامة ساخرة، ثم قال لها فجأة:

- التفاخر... التفاخر والخوف هما السبب فقد اوقفانى عن اللحاق بك، وفرضا على كتابة ما سميتها انت بتلك الملاحظة الوجيزة الكريهة. انا ايضا تألمت كثيرا، كما تعلمين. احسست بأن هربك منى دونما اى تفسير أو تبرير، طعن كرامتى حتى الصميم، وأذل عزة نفسى... ومرغ شرفى بالتراب. لعنت كل شىء، حاضرى ومستقبلى، إن انا ضعفت امام الحب وحاولت اللحاق بك. تصورت... كنت شبه مقتنع بأنك ستعودين.

- غطرسة، تكبر، عجرفة.

- ربما! ولكن امتناعى عن اللحاق بك، قد يكون ايضا بسبب البساطة والسذاجة. فأنا آمنت بالقسم الذى تبادلناه يوم زواجنا، وتصورت انك انت ايضا مثلى تؤمنين به وبقدسيته وديمومته. منحتك بعض الوقت للتفكير، ثم كتبت لك طالبا منك العودة. ولكنى خفت من تضمين رسالتى حقيقة مشاعرى نحوك، فى حال عدم موافقتك على دعوتى وطلبى.

مد يده وأبعد خصلات شعرها عن وجهها، ثم سألها بمحبة وحنان:

- هل تفهمينني الآن، يا حبيبتي؟ انا لست رجلا معقدا جدا كما تظنين، وأتوخى البساطة فى كافة اعمالى وتصرفاتى وعاداتى. عرفت الحب لأول مرة فى حياتى... عندما التقيتك فى الصيف الماضى. وفعلت آنذاك ما فعله والدى قبل خمسة وثلاثين عاما بعدما التقى والدتى... طالبتك بالزواج. لم يكن هناك اى سبب آخر، أو اى ترتيبات من أى نوع من المرحوم خالك. اعرف انه كان سعيدا بزواجنا أشد السعادة وانه صور لنفسه ان دعوته وحدها هى التى أدت الى ما يصبو اليه منذ فترة طويلة . ما بك الآن؟ لماذا تبكين؟

- لأننى سعيدة جدا يابيار. هذه هى دموع الفرح والسرور. اوه، بيار، لماذا لم تقل لى هذه الأشياء كلها من قبل؟ اقترب منها كثيرا وقال لها برقة:

- لأنك لم تسالينى ابدا من قبل... لأنك لم تهتمى كفاية لكى تسألى.

- احبك... احبك منذ البداية، ولم اتوقف ابدا عن هذا الحب. رفع رأسه، وقال لها عابسا:

- لماذا اذن لم تعودى قبل الآن؟ لماذا اضعت تسعة أشهر رائعة من حياتنا وزواجنا؟

- لأننى لم اعرف مقدار حبى الهائل لك، الا عندما رأيتك ثانية. ربما كان من الضرورى الابتعاد عنك لأعرف... ولأتأكد. اوه، بيار، لا تدعنى ابتعد عنك مرة ثانية.

- احب ان أعانقك، والا ادعك تبتعدين عنى ابدا... ولكنى افضل القيام بذلك فى مكان افضل من هنا، من حيث الراحة والبعد عن أعين الفضوليين. الى اين سنذهب؟ بلفين أو القصر؟

احست ايلاين مجددا بطعم الاثارة الحقيقية، وبشىء من الخجل، والارتباك نتيجة النظرات التى كان يوجهها لها. قالت له بصوت يرتجف عشقا وهياما:

- احب الذهاب الى بلفين، ولكن... ولكنه يجدر بنا التوجه حالا الى شامبورتن قبل أن يساورهم القلق هناك بسبب هذا التأخير وعلى اى حال، فانه يفترض بك حضور الاجتماع الذى سيعقد فى تمام الحادية عشرة لقراءة الوصية:

- سنذهب اذن الى شامبورتن ولكنى اريد أولا...

- رفع رأسها نحوه ونظر فى عينيها بتلك الطريقة التى استخدمها فى الليلة الفائتة... والتى تبدو كمعاقبة لها على قضاء هذه الفترة الطويلة بعيدا عنه شعرت ايلاين برجفة قوية تهز جسمها... وبأنها كانت على وشك الاختناق. تنفست بقوة وأسندت نفسها الى كتفه، فقال لها:

- لم يعد يهمنى كثيرا سبب هروبك منى. لقد عدت، وستبقين معى الى الأبد وهذا هو الأهم. وتأكدى بأنك اذا حاولت الفرار ثانية فسوف ألحق بك الى نهاية العالم... وأعيدك الى هنا.

- أبعدها عنه برفق ومحبة ثم ادار محرك السيارة وأطلق لها العنان باتجاه شامبورتن. ثم قال لها بعد لحظات:

- أظن انك تعرفين الآن من المحامى لوجيه، بأن شركة سان فيران تملك كل شىء.

تابعت ايلاين تسريح شعرها، وهى تقول له:

- عرفت بعض المعلومات منه، والبعض الآخر من والدتك لماذا لم تخبرنى

بذلك يوم وصولى، عندما اتهمتك بأنك تزوجتنى لتشاركنى الارث؟

- لقد كنت على وشك القيام بذلك، لأننى عجبت كثيرا من اتهاماتك. لم تكن لدى أى فكرة على الاطلاق، انك لا تعرفين الا القليل عن شؤون خالك. ثم قررت استخدام اقتناعك ذاك، لحملك على القبول بتلك المصالحة الزائفة المزعومة.

ضحك بصوت عال ، ومضى الى القول:

- لم تكونى بحاجة الا الى بضع كلمات مختارة بعناية، لكى توافقى دون تفكير على أى شىء يحرمنى من التحول الى وريث وحيد... لا يا حبيبتى! لا تهاجمينى الآن، فقد تواجه السيتروين وضعا مماثلا للبيجو.

- ولكن، كان بامكانك اطلاعى على ما حدث معك بالنسبة لبلفين.

- لم اتصور اطلاقا ان الأمر قد يهمك.

- لقد اعجبنى البيت كثيرا، واعتقد ان بامكانى جعله اكثر جاذبية... هذا بالطبع اذا سمحت لى باجراء بعض التعديلات عليه.

ابتسم وقال لها مداعبا:

- هل يعنى هذا انك رفضت عرضى بالطلاق؟ هل يعنى هذا انك على استعداد تام للاستقرار هنا، وللتصرف كزوجة هادئة مسالمة لرجل فرنسى عادى... لمزارع بسيط؟ هل ستعدين الطعام والقهوة، وتنظفين الثياب والمفروشات، وتهتمين بكافة شؤون البيت الداخلية؟

قالت له بلهجة مرحة، وهى تشعر معه بارتياح لم تعرف له مثيلا من قبل:

- سأفعل كل هذه الامور بكل سرور، مادمت لاتسعى وراء امرأة اخرى.

- ولماذا اريد القيام بأمر كهذا طالما أننى أجدك فى بيتنا كل ليلة...

وأعرف انك ستمنحيننى كل السعادة التى احتاج اليها؟

- حقا، يا بيار؟

- حقا يا ايلاين.

دخلا باحة القصر وشاهدا سيارتين متوقفتين قرب المدخل، فقال بيار بشىء من العصبية والضيق:

- اللعنة! الشقيقتان العزيزتان موجودتان هنا. وهذا يعنى اضطرارنا للتصرف بتهذيب ولباقة وعدم الابتعاد عنهما كثيرا. فهل يمكنك انتظار ذلك، يا حبيبتى؟

- اذا تمكنت انت، فسوف اتمكن انا.

ثم تذكرت يده الجريحة، وسارعت الى القول:

- اوه، يدك! سوف يسألك عنها الآن جميع الموجودين فى المنزل!

اوقف السيارة ثم أطفأ محركها، وقال بانزعاج:

- لن تكن يدى الشىء الوحيد الذى سيسألون عنه! سيريدون معرفة بعض المعلومات عنك، ذلك اننى اخبرت أمى صباح اليوم بأن مصالحتنا كانت وهمية زائفة.

- اعرف. حدثتنى هى بنفسها عن هذا الموضوع. فى رأيك ماذا سنفعل لدى دخولنا؟ هل سنخبرهم؟ ابتسم وقال:

- لا، سأتركهم فى حيرة لبعض الوقت. هل تعتقدين انك قادرة على التظاهر، لبضع ساعات فقط، بأننا لسنا على وفاق سنمازحهم قليلا.

- سأحاول، ولكنى سأجد صعوبة بالغة فى ذلك... لأننى احترق شوقا اليك.

- اعرف، يا حبيبتى، ولكن تذكرى ان طول الانتظار سيزيد من متعة اللقاء.

دخلا الى البيت، فقابلهما جاك ليقول لهما ان السيدة مارجريت تنتظرهما فى قاعة الجلوس. تطلع بيار نحو ايلاين وقال لها:

- اصعدى الآن لتغيير ثيابك، فيما ادع جاك يضمد هذا الجرح بطريقة صحيحة. سأراك فى القاعة بعد قليل.

استقبلتها مارجريت بعد ربع ساعة بالقول:

- أنا سعيدة بعودتك، ايتها الحبيبة الغالية، فقد بدأت اقلق عليك. هل تذكرين ابنتى الكبرى جانيت وزوجها جل والصغرى مارى وزوجها برنار! جل، احضر كوبا من العصير لايلاين... اذا سمحت.

- جلست قرب الشقيقتين، وراحت تجيب على اسئلتهما عن صحتها وأحوالها ... وتسألهما بدورها عن أولادهما. سألتها مارجريت فجأة:

- هل سارت الأمور على ما يرام فى بلفين؟

- نعم. عاد بيار معى، وسينضم الينا خلال دقائق معدودة.

- انا سعيدة. سنتناول العشاء معا، هذه هى احدى المرات النادرة التى يكون فيها جميع اولادى معى.

دخل بيار بعد قليل، فحدثت ضوضاء قوية لأن الجميع بدأوا يتحدثون فى وقت واحد... باستثناء ايلاين، التى كانت تنظر بشغف الى زوجها وحبيبها طوال الوقت. وعندما انتهى العشاء وزعت القهوة على الموجودين، عادت الشقيقتان الى التحدث وتوجيه الأسئلة. ثم وقفت الأخت الكبرى، وقالت ان الوقت قد حان لتوجهها وزوجها الى لاروشيل. . . نظرا لبعد المسافة. وقف

الجميع، فمدت يدها نحو ايلاين قائلة:

- استودعك الله. لن نتمكن من حضور الجنازة، كما اننى اتصور انك ستغادرين الى لندن بعدها مباشرة.

احست ايلاين بالعرق البارد يتصبب من جسمها، فيما صمت الجميع وركزوا انظارهم اليها... وكأنهم يتهمونها بارتكاب جريمة فظيعة ورهيبة. هذا حقهم، وبخاصة انهم يحملونها مسؤولية تعاسة بيار وحزنه الدائم. ارادت أن تصرخ بهم قائلة انها حرة فى البقاءأو فى العودة، ولكنهم لن يفهموا ذلك ابدا. قالت بصوت متلعثم:

- لا... لا اعرف بعد، يا جانت. لست... لست متأكدة. سررت برؤيتكما انت وجل. شكرا لحضوركما.

غادرت مارى وزوجها برنار قصر شامبورتن، بعد نصف ساعة من ذلك أعلنت مارجريت انها ذاهبة الى النوم ثم سألت ابنها:

- هل ستبقى الليلة هنا، ام انك ستعود الى بلفين؟

- سأبقى هنا، يا امى، لحضور الاجتماع المقرر مع السيد لوجيه. تصبحين على خير، ايتها الحبيبة.

قطبت مارجريت حاجبيها، وهى تنظر الى يده اليمنى، وقالت:

- أرى انك جرحت يدك يا بيار. هل تؤلمك كثيرا، يا بنى؟

- لا. فالجرح عادى وبسيط للغاية.

- انا مسرورة بحضورك هذا المساء مع ايلاين، واتمنى. . .

لم تكمل جملتها، وادارت وجهها عنهما وشقت طريقها لتصعد الى

غرفتها. ولكنها نظرت اليهما ثانية، وقالت:

- تصبحين على خير يا ايلاين. تصبح على خير، يابنى. سأراكما غدا باذن الله وربما ستخبراننى عندئذ سر هذه السعادة الفائقة التى تشعران بها!

انتظرا حتى وصولها الى غرفتها وسماعهما اغلاق الباب، ثم تحولا الى بعضهما. تشابكت يداهما وصعد صامتين نحو غرفة النوم فى برج القصر. وما ان اغلق بيار باب الحجرة وراءهما، حتى رفع رأسه وقال متمتما:

- اعتقد ان امى احست بالموضوع.

- وأنا اعتقد ذلك ايضا.

ثم خلعت حذاءها واضافت قائلة:

- اخشى اننى فضحت سرنا أثناء العشاء.

سألها عن سبب اعتقادها هذا ضحكت بصوت خافت، ثم ابتعدت عنه قليلا وقالت له:

- كنت احدق بك طوال الوقت. وعندما ودعتنى جانيت وجاءت على ذكر العودة الى لندن، شعرت بالقلق والارتباك الشديد ولم اتمكن من التعليق على كلامها. اردت افهامها بأن البقاء هنا أو الذهاب الى بريطانيا، ليسا من شأنها اطلاقا.

- انا مسرور جدا لأنك لم تفعلى ذلك، اذ كان جواب كهذا سيثير بعض الحساسيات والمشاكل التى نحن بغنى عنها.

تلاقيا قرب النافذة ووقفا هناك بضع لحظات، فيما كان ضوء القمر يغمر معظم ارجاء الغرفة. وفجأة قال لها بتحد رقيق:

- لنكتشف الآن ما اذا كانت رحلة السعادة تستحق كل هذا الانتظار.

هزت رأسه المتكئ على كتفها وسألته بصوت دافىء:

- هل كانت فعلا تستحق الانتظار؟

اجابها هامسا، بصوت يضج ارتياحا:

- ماذا تعتقدين انت؟

- اعتقد انها كانت ذروة فى البهجة والهناء. ولكنى آمل فى الا تزعجك النتائج، التى ستتمخض عنها.

رفع رأسه لكى ينظر الى عينيها، وسألها مستفسرا:

- ماذا تقصدين بذلك؟

- بعد ليلة امس وهذه الليلة... قد نرزق اجمل ما فى هذه الحياة. هل تفضل صبيا ام بنتا؟

- رياه ! لم افكر بهذه المسألة اطلاقا!

انفجرا ضاحكين كمن اصابهما مس من الجنون، وقالت له:

- كم انا سعيدة، يا حبيبى، لأنك انت ايضا لا تفكر فى بعض الاحيان.

ثم طوقته بذراعيها، وسألته بهدوء:

- هل اخبرك الخال ارمون عن حلمه، فى ان يثمر زواجنا عن طفل يصبح الوريث الشرعى لشامبورتن؟

- نعم. قال لى ذلك ليلة الجمعة عندما امضيت معه فترة طويلة.

توقف لحظة، ثم مضى الى القول:

- ولكنى ارجو مخلصا فى الا يجعلك ذلك تظنين، ان هذا هو سبب حبى لك.

- لا،لا، ياحبيبى، لم أظن ذلك ابدا. على اى حال فشامبورتن لم تكن له ليترك شيئا منها لأحد.

وأضافت بصوت جدى هامس:

ارجو أن تغفر لى تصورى جميع هذه الأشياء الفظيعة عنك.

- سأغفر لك اذا سامحتنى انت عن كافة تصرفاتى الخسيسة معك. لم أستطع السيطرة على نفسى وأعصابى. انتظرتك فترة طويلة للغاية، وفجأة وجدتك قربى... جميلة، رائعة، جذابة، مغرية...

- كفى، فأنا ايضا كنت احترق شوقا اليك... حتى على الرغم مما قلته اليوم، من ان الحب لم يكن جزءا مما حدث.

- قلت لك ذلك، لأننى لم اكن متأكدا من كيفية شعورك انت نحوى.

- ولكنك تعرف الآن، أليس كذلك؟ قلها يا بيار ارجوك. قلها، لأنها حقيقة ثابتة لا غبار عليها، احببتك امس، وأحببتك اليوم، وسوف أظل احبك الى الأبد ... ولن ابتعد عنك بتاتا.

- لن يحدث ذلك ابدا، يا حبى، لأنه لن تسنح لك فرصة ثانية فأنا أضمن ذلك.